المنهج السنني
أفق حضاري متجدد

عمر عبيد حسنه

قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا بمعرفة الوحي إلى سبيل كل خير، وجعل العقل مناط التكريم للإنسان، واعتمده دليلاً لمعرفة الوحي، والامتداد بعطائه في كل زمان ومكان؛ والصلاة والسلام على أنموذج الاقتداء، الذي جسَّد بسيرته أنموذج التعامل مع معرفة الوحي وتنزيلها على واقع الناس، يقول تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ (الأحزاب:21).. وبعد:

فلا أرى نفسي مغالياً ولا مجازفاً إذا قلت: إن إشكالية تغييب العقل وإلغائه وتعطيله في الواقع الإسلامي باسم الدين والتدين ومقتضى الالتزام بالعقيدة الصحيحة والانضباط بمعرفة الوحي والتوقف عند عطائها، واعتبار العقل نقيض الوحي، أو مقابل الوحي، كانت ولا تزال تحكم حياتنا بالمطلق، وتتحكم بثقافتنا العامة، وتشكل السبب الرئيس الكامن وراء تخلفنا وعجزنا وتأخرنا وانحطاطنا وانغلاقنا، كما أنها تشكل المنطقة المحرمة التي لا يجوز الاقتراب منها والبحث في كنهها؛ لأنها محاطة بأسوار سميكة من التخويف والترعيب والإرهاب الديني المتوارث، ثقافياً واجتماعياً.

هذه الإشكالية، أدت بنا إلى محاصرة عطاء معرفة الوحي والحيلولة دون الخلود والامتداد وتعطيل وظيفة العقل وإلغائه كلياً، والانتهاء إلى ضروب من الإرجاء المعاصر، الذي يعتقد الإيمان وحده كافياً والذي انتهى بأصحابه إلى إضاعة طاقات الأمة وشل حركتها وإفقادها مهمتها الرسالية في الاضطلاع باستحقاقات الاستخلاف وإقامة العمران، ذلك أن الإرجاء يعتبر أن مجرد الإيمان السلبي يكفي ليكون سبيل النجاة، ومن بعده فلا حاجة للعمل والنظر والتفكير والتدبير واستشعار المسؤولية والهمّ والاهتمام بقضايا الأمة؛ الهمّ الذي يبعث الهمة، كما يقال.

ومِثلُ هذا التدين المغشوش والفهم المعوج لقيم الوحي ووظيفة العقل ينتهي بصاحبه إلى لون من الاطمئنان الخادع، والاستسلام المزيف، والوهم الكبير بأنه يحسن صنعاً.

ولعل الأخطر في ذلك أن هذا اللون من التدين يعطل ما يمكن أن نطلق عليه «القلق السوي»، القلق الحضاري، الذي يعتبر المحرك الدائم لفاعلية الأمة، والمحرض المستمر للمراجعة الدائمة لأدائها وممارسة النقد والمقارنة والنمو والارتقاء والتجاوز، والدافع الأساس للنظر والتدبر في معطيات الوحي؛ لأنه تدين مغشوش، يمثل حالة الانطفاء الكامل وينتهي إلى الخسران المبين.

ولو كان هذا هو الدين حقيقة أو التدين، الذي أصلته معرفة الوحي، لما تجاوزت النبوة جدران غار حراء، أو لما كان هناك دعوة وحركة وهجرة وتضحية، ولما تجاوز الإسلام أسوار المدينة المنورة.

وقد نقول: إن هذا اللون من التدين مريح؛ لأنه يُشعر صاحبه بالاطمئنان الخادع ولا يكلفه شيئاً، وقد يحوِّله إلى

رقم في القطيع البشري المستسلم لقياده «فلا تعترض فتنطرد»؛ والخطورة كل الخطورة عندما يوكل أمر الطرد من رحمة الله إلى البشر، حيث يلغى الوحي والعقل والإنسان معاً.

ولا نستغرب كثيراً أو لا نفاجأ عندما نرى أن الأنظمة المستبدة والدكتاتورية الطاغية تشجع هذا اللون من التدين، وتنفق عليه بسخاء، وأكثر من ذلك فهي قد تنشئه وترعاه؛ لأنه يصبح جزءاً من لوازم الحالة الاستبدادية، حسبه أنه يساهم بالتنويم والتخدير والعطالة، ويُستخدم لمحاربة التدين الصحيح الفاعل في حياة الأمم، إنه تدين يحرِّم النقد والمراجعة والمناصحة، ويساهم بتكريس التخلف، وعندها تتحول قيم الدين من دافع ومحرض إلى مانع ومعطل، وهذا من بعض الوجوه يؤدي بمن يعجز عن تجاوز الصورة إلى الحقيقة إلى الفسوق والتمرد والرفض والخروج والمغالاة والتشدد، أو الزندقة والكفر والإلحاد، ويفسح المجال أمام كل علل التدين للمرور إلى الأمة.

وما لم نفكر بكيفية حل المعادلة الصعبة بين العقل والوحي فسوف تستمر رحلة التيه والضياع والضلال، سواء بالنسبة لمن توهم أن معرفة العقل ووظيفته تغني عن هداية الوحي وعطائه، أو من توهم أن معرفة الوحي وعطائه تلغي دور العقل ووظيفته في الاجتهاد والامتداد بالوحي وتنزيله على واقع الناس وتحقيق خلوده في كل زمان ومكان.

ولعلنا نقول: إن معرفة الوحي هي سبيل التعرف على المنهج السنني، بشكل عام، وكشف سنن الأنفس، واطرادها، ولفت النظر إلى السنن الكونية، وجعلها منوطة بمعرفة العقل لتسخيرها.

فالوحي يرسم خارطة الحياة، ويبصِّر بأهدافها، ويحدد مقاصدها، ويبين المناهج والسنن، التي تحكمها أمام السالكين، ويشكل بوصلة الهداية لها؛ والعقل يبتكر أدوات ووسائل المسيرة، ويضع البرامج، ويكتشف المناهج والسنن، ويستوعبها، ويسخرها، ويغالبها، ويتعامل معها على أنها أقدار الله وتدابيره وأنظمته للكون، وسنته الناظمة لمسيرته، حيث لا مجال للعبث أو الصدفة.

ولعل النبوة بقيمها، والسيرة بفعلها وتجسيدها لهذه القيم قد جلت هذه المفاهيم، وحلت المعادلة الصعبة، وقدمت أنموذجاً للتعامل مع معرفة العقل ومعرفة الوحي، وحددت المساحات والمجالات المنضبطة لكلٍ منهما، وحلت عقدة القدر والحرية وكشفت الفهوم المعوجة لمسألة التدين، وأكدت على التكامل والتلازم بين الوحي والعقل، وجعلت الانضباط بالمنهج السنني من لوازم التدين والاستجابة لهدايات الوحي، وناطت بالعقل اكتشاف تلك السنن والتعامل معها، فالله ﴿ **أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ (طه:50)، والرسول ﷺ قال: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**» (أخرجه البخاري)، فما هو هذا العطاء، الذي أعطاه الله لكل شيء؟ ما هو قانون كل شيء الذي يحكمه ويسيره؟ وما هي القابليات والمواهب والمؤهلات التي يمتلكها الإنسان والتي يمكن اكتشافها من توجيهه لما يسر له؟

هذا هو المنهج السنني، الذي ما يزال غائباً والذي يحتاج استدعاؤه وجعله شاكلة ثقافية تشكل الذهنية الإسلامية المعاصرة إلى الكثير من الجهود والتعميق والتأكيد والتكرار والمراجعة والمشاورة والمشاركة وإعادة قراءة النص، معرفة الوحي في الكتاب والسنة، بأدوات ووسائل منهج النبوة حتى ينضج في الذهن، وتتضح معالمه، وتستبين شروطه ومقوماته، وعندها نأمل أن يشكل سبيل الخروج والانعتاق من وهدة التخلف، واسترداد الفاعلية، وبعث روح الأمة من جديد، ومعاودة إخراجها واكتشاف أفق حضاري متجدد وجديد، وبذلك نضطلع بمهمة التجديد التي خلقنا الله بها «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**» (أخرجه أبو داود).

وهذه الرسالة، التي نقدمها نحسب أنها تشكل بصائر على طريق المنهج السنني، ذلك الملف المفتوح على الزمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فلكل يوم اكتشاف جديد، وتحاول إلقاء الأضواء على أهمية «فقه السنن» واستدعاء هذا المنهج إلى الساحة الدينية والثقافية، وفتح نوافذ في الجدار المسدود، ذلك الأمر الذي يتطلب الكثير من التأكيد ومعاودة القول والحفر في العمق، التأكيد الذي قد يصل إلى حد التكرار، هذا التأكيد ومعاودة القول قد يكون في نظرنا من طبيعة الحديث عن المناهـج؛ لأن إنضاج المنهج ولفت العقل إليه يتطلب الكثير من الوقود والمحرضات ومعاودة الإيقاد واستمرار التحريض؛ على أمل أن تساهم هذه الرسالة، ولو بشيء بسيط على الطريق الطويل من استرداد فاعلية الأمة، وذلك بوضعها على الجادة، وتأهيلها للتعامل مع استحقاقات الوحي واستجابات العقل ومعاودة الإقلاع في رحلة الكشف العلمي، في ضوء المنهج السنني.

ولا بد من الإشارة إلى أن الأفكار الواردة في هذه الرسالة كتبت في مناسبات متعددة وأزمنة مختلفة، لذلك قد يُلاحظ عليها معاودة التأكيد لبعض المعاني، التي تشكل في الأصل محور الرسالة.

والله من وراء القصد.

الدوحة في:

رمضان 1430هـ/ أيلول (سبتمبر) 2009م

مدخل

لعل من الأمور المسلَّمة أن هذه الحياة تسير طبقاً لنظام محكم، كما يرى العقلاء جميعاً، من أدق الأمور إلى أعلاها، سواء في ذلك من يفكر فيؤمن بأن وراء ذلك إلهاً خالقاً مدبراً حكيماً، أو من يظن أن الكون وُجِد هكذا من تلقاء نفسه، وعجز عن إدراك النظام والقانون، فعبَّر عن عجزه بأن الحياة والأحياء تولدت من خلال تفاعلات وتدافعات وصراع حول البقاء، وكأنّ التفاعلات والتدافعات لو صحت ليست من السنن (!) أو أن الطبيعة هي التي أنتجت ذلك كله عن طريق الصدفة، رغم أن هذه الصدفة حدثت لمرة واحدة ولمّا تتكرر(!)

وقد أكد القرآن أن كل شيء يحدث بسببٍ، ويخضع لنظام، سواءً كان في عالم الأحياء أو الأشياء (في سنن الآفاق) أو عالم الأحياء (سنن الأنفس).

فقانون السببية والنظام شامل لكل الوجود.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله: «فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات» (الفتاوى، ص70).

والقرآن، كما يقول ابن القيم، رحمه الله: مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة كقوله تعالى: ﴿ **كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ**﴾ (الحاقة:24)، ويأتي باللام تارة كقوله تعالى: ﴿...**كِتَابٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ** ﴾ (إبراهيم:1)، ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً**﴾ (الطلاق:2)، فليس في الكون مكان للصدفة، وإنما هناك أسباب ومسببات ونتائج تسبقها مقدمات؛ وما يطلق عليه صدفة أو يفسر بالصدفة ما هو صدفة في الحقيقة وإنما هو حدث ما يزال يجهل الناس أسبابه؛ وكثير من الأمور التي كان ينسبها الناس في الماضي إلى الخوارق والجان والسحر والأساطير كان الزمن كفيلاً بكشف أسبابها.

وقد يكون الفرق الدقيق بين الأسباب المادية (سنن الآفاق) والأسباب الاجتماعية (سنن الأنفس) هو أن الأولى أسبابها واضحة بيِّنة منضبطة بالزمن والمواصفات، إذا عَرَفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وتحديد عمر ومواقيت هذه النتائج.

أما الإشكالية الحقيقية فهي في الأسباب الاجتماعية، بمختلف أنواعها، سياسية اقتصادية، حضارية عمرانية، نصر وهزيمة، نهوض وسقوط، فهي أسباب خفية دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة، وقد يصعب على الكثير الإحاطة بها تفصيلاً، لكن مع هذه الصعوبة يمكن للمتأمل المتفحص الدقيق أن يكتشفها ويتعرف عليها ويحيط بها، كما يمكنه الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة، وإن لم يمكن الجزم بميعاد حصول النتائج، لذلك فنستطيع أن نحكم على وجه الجزم واليقين بزوال حكمٍ أو سلطانٍ وجدناه قائماً على الظلم والإرهاب، وإن كنا لا نستطيع تحديد وقت زواله بالضبط كما هو حال الأمور المادية (سنن الآفاق).

ومن أجل هذا الفرق بين (سنن الآفاق) و(سنن الأنفس) يغفل الناس كثيراً عن سنة الله في الاجتماع البشري وفي تصرفات الأفراد وسلوك الأمم، ويظنون أن أمورهم لا تخضع لسنن كما تخضع الظواهر الكونية.

ويقوى هذا الظن الخاطئ في نفوسهم عندما يرون، في الظاهر، أسباباً متشابهة بين دولتين أو أمتين ولكن أحوالهما

مختلفة، فأين هو القانون العام وهذه الأسباب بينهما واحدة لكنها لم تؤد إلى نتائج واحدة (؟!) ولقد فاتهم أن الأسباب تؤدي حتماً إلى مسبباتها إلا لمانع، والمقدمات تؤدي إلى نتائجها إلا لعارض؛ وهم لم يبصروا الموانع والعوارض، كما أنهم لم يبصروا كل الأسباب والنتائج، فتراكم عندهم الخطأ، فلم يعودوا يبصرون[1].

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن السنن الكونية المادية تترتب نتائجها بسرعة ووضوح بعد فعل المقدمات، لدرجة تكاد تكون صارمة كالمعادلات الرياضية، بينما السنن النفسية والقوانين الاجتماعية قد تتخلف نتائجها السريعة وقد يمضي جيل أو أكثر دون إدراكها أو إبصارها، لذلك فهي عَصيَّة عن الإدراك السهل؛ لأن مقدماتها ترتبط بالعواقب البعيدة وليست النتائج القريبة؛ لذلك نرى القرآن الكريم يتحدى بالعواقب وليس النتائج شأن السنن الكونية، ذلك أن النتائج القريبة في سنن الأنفس والاجتماع قد تكون من المقدمات، فالعاقبة قد تكون بعيدة الحصول، وإلا فما معنى أن تستمر الحالة الفرعونية ورموز الاستبداد السياسي قروناً قبل أن تسقط وتصبح عبرة بما انتهت إليه من عواقب؟!

وقد رد ابن تيمية، رحمه الله، على من لا يعتبر الأسباب ويُنكر أن يكون مسبباتها ناتجة عنها، فقال، رحمه الله: ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، وهو طعن في الشرع أيضاً، فالله يقول: ﴿**وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ (البقرة:164)، ويقول: ﴿ **يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَمِ**﴾ (المائدة:16).

فمن قال: يفعل الله تعالى عند الأسباب وليس بها فقد خالف لفظ القرآن[2].

فالمؤكد أن هذه الحياة والأحياء والأشياء تسير وفق نواميس وقوانين وسنن ثابتة ومطردة، ولولا ذلك لاستحالت حياة الإنسان عليها وسعيه فيها؛ لأنه يعيش عاجزاً عن الفهم والتفهم والعمل على تحقيق أهدافه والتعامل مع الأشياء، التي يصعب عليه التنبؤ بما تحمل، وإلى أين تمضي، ولكانت الحياة مجموعة ألغاز تلغي عقل الإنسان وإرادته وتدبيره وخططه واستشرافاته للمآلات والمصائر والعواقب.

وإذا كان ذلك كذلك فإن الفهم والوعي بالحياة والاستيعاب لسيرورتها وإمكانية التعامل معها والمداخلة في سيرتها يتطلب اكتشاف هذه السنن والقوانين، وفهم آلية عملها، ومن ثم امتلاك القدرة على تسخيرها ومدافعة قدر بقدر أو سنة بسنة؛ وأن عملية النهوض بكل متطلباتها وشروطها إنما تتحقق بالتزام هذا المنهج السنني، وتوظيفه لبلوغ الأهداف وتحقيق متطلبات الاستخلاف، والقيام بأعباء عمارة الأرض وإقامة العمران؛ وأن أي فشل أو إخفاق أو سقوط أو تعثر إنما يرجع إلى الخلل في إدراك قوانين الأشياء وقصور الرؤية عن كيفية التعامل معها.

وقد نقول هنا: إن الله سبحانه وتعالى ناط بالإنسان أمانة القيام بأعباء الاستخلاف، وحمله المسؤولية عن حسن الأداء؛ وهذا التكليف لا يتحقق إلا بإدراك المنهج الرباني، الذي وضعه الله وأعطاه للأشياء جميعاً بما فيها الإنسان، وإن أي تقصير أو خلل ينتاب الحياة أو يعجزها عن النمو أو يصيبها بالارتكاس إنما هو ناتج عن عدم إدراك هذا المنهج وعدم إعماله أو التعامل معه بفقهٍ ووعي.

---

(1) انظر عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية.
(2) الفتاوى، 175/8.

والعجز عن الإدراك يحوِّل معادلات الحياة جميعاً إلى ألغاز مبهمة مستعصية على الحل.

وإصابات الحياة أيضاً سوف تبقى ألغازاً تتكرر وتنعدم فيها الدروس والعبر إذا لم نكتشف هذا المنهج السنني ونحسن تطبيقه وتنزيله واكتشاف الخلل في تطبيقه في رحلة الحياة كلها، والتعامل معه كسبيل للتنمية والنجاح والنهوض والقيام بأعباء الاستخلاف، وكوسيلة لاكتشاف الخلل والإصابات والإخفاق والفشل والسقوط في محاولة التجاوز ومعاودة النهوض.

فالإشكالية وجدلية الحياة تكمن في اكتشاف قوانين الأشياء، وعدم الاقتناع بأن رحلة الكشف مستمرة حتى نهاية الحياة على الأرض؛ تلك القوانين التي لولا اكتشاف بعضها لتوقف امتداد الحياة وكشوفاتها، ولتوقفت رحلة البحث والإنتاج العلمي والتفوق المعرفي.

إن هذه السنن، أو هذا المنهج، قد بدأ مع الإنسان الأول، بأدواته البسيطة وتجاربه وملحوظاته؛ واستمرت رحلة الكشف وسوف تستمر، ويأتينا هذا المنهج كل يوم بقوانين جديدة للأشياء في مختلف الشؤون والحقول العلمية، ويتيح لنا فرص التقدم والارتقاء، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ (طه:50)؛ وهذا الخطاب الإلهي للإنسان يتطلب الكثير من التأمل والتفكر والتدبر، ويثير السؤال الكبير والمستمر الكامن في عمق الأشياء: ما هو هذا الناموس، الذي منحه الله وأعطاه للأشياء، كل الأشياء؟

إن كشف أو اكتشاف هذا العطاء من الله للأشياء، الذي يعني –فيما نرى– قوانين المادة والكون والحياة والأحياء، كل شيء، هو سر رحلة البحث العلمي، وهو المحرض الحضاري الدافع إلى استمرار البحث والتحري والاستقراء والاستنتاج والملاحظة والمقارنة والمقايسة والاعتبار... وهكذا.

إن الله أعطى كل شيء خَلْقه، فما هو هذا العطاء، الذي منحه الله لكل شيء في هذه الدنيا؟ وكيف نهتدي إليه؟ وما مصدر المعرفة، الذي يضعنا على الجادة الصحيحة؟ وما هي الميادين الحياتية، التي نختبر فيها مدى فاعلية هذه السنن واطرادها، وعواقب الجحود لها، والنكول عن التعامل معها، واللجوء إلى الخوارق والأساطير والخرافات؟

وفي تقديري أن مصدر المعرفة العام لاعتماد هذه السنن كمنهج وإبصارها والحرص على متابعة كشفها هو الوحي، أو معرفة الوحي، وهداية الوحي، فالله أعطى كل شيء خَلْقه ثم هدى؛ فالهداية للأشياء سيرها وفقاً لما أعطاها الله؛ وكلٌ ميسر لما خلق له.

والعقل محل التكليف، ومحل الخطاب، ووسيلة نقل ونشر هذه الهداية واكتساب العلم بهذه السنن والاعتبار من السير في الأرض للتأكد من فاعليتها واطرادها وأسباب تخلفها والعواقب التي تترتب على ذلك؛ كما أن معرفة العقل مطلوب إليها، وفق هذا المنهج السنني، هذا الفرض الحضاري، من السير في الأرض والاطلاع على تاريخ الأمم، واستشراف المستقبل، والاكتشاف لمزيد من القوانين والسنن لتحقيق المزيد من الفهم والارتقاء وتجنب الارتكاس والسقوط والعناد.

ومعرفة الوحي لم تتكفل بالهداية إلى هذه السنن، التي تمثل سر الحياة وامتدادها وديمومتها ووضع العقل على الجادة الصحيحة لمسيره فقط، وإنما أكدت إمكانية تدافعها؛ فهي ليست قوالب صلبة قسرية يُصبّ فيها الإنسان فتفقده حرية اختياره وكرامته وتميزه عن سائر المخلوقات، وإنما هي دينامية فاعلة متفاعلة، تتولد عن تدافعها حركة الحياة وتميز الأشياء،

وتمنح العقل القدرة على المغالبة وتوليد الحلول ودرء المشكلات؛ لذلك يمكن القول:

إن معرفة الوحي مصدرها، والسير في الأرض والتوغل في تاريخ الأمم والحضارات مختبرها.

ويمكن أن نذكر ببعض السنن الإلهية:

– **سنة زيادة الرزق والبركة فيه**، بالدعاء والاستغفار وصلة الأرحام:

يقول تعالى: ﴿ **فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ ٱلسَّمَاء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً** ﴾ (نوح:10–12)؛ ويقول ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» (أخرجه البخاري).

– **سنة كفر النعمة وزوالها:**

يقول تعالى: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ** ﴾ (النحل:112).

– **سنة نهاية الترف ومصير المترفين:**

يقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ (الإسراء:16).

– **سنة الوراثة الحضارية:**

يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِن بَعْدِ ٱلذّكْرِ أَنَّ ٱلأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ * إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغاً لّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ* وَمَا أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ رَحْمَةً لّلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأنبياء:105–107).

– **سنة تحقيق النصر والتمكين:**

يقول تعالى: ﴿ **يأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ (محمد:7).

– **سنة المدافعة** كقانون اجتماعي؛ يكاد ينتظم كل الأشياء تقريباً ويكون سبباً في النمو والارتقاء وحصحصة الحق وتأصيل الخير وهزيمة الشر والباطل:

يقـول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلارْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ (البقرة:251)، ويقول: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدّمَتْ صَوٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسمُ ٱللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ**﴾ (الحج:40)، ويقول: ﴿**كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلأَرْضِ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلأَمْثَالَ** ﴾ (الرعد:17).

– **سنة التدرج والارتقاء بالناس** شيئاً فشيئاً كقانون تربوي أخلاقي تشريعي:

أخرج البخاري عن أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «...إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ (أي القرآن) سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ نَزَلَ الْحَلالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا لَقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا...».

وأخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رَضِي اللَّه عَنْهمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا، رَضِي اللَّه عَنْه، عَلَى

الْيَمَنِ قَالَ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ**».

- سنة التغيير الاجتماعي:

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (الرعد:11).

– سنة السير في الأرض لتحقيق العبرة واكتشاف القوانين الاجتماعية:

يقول تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ ٱلْمُكَذّبِينَ** ﴾ (الأنعام:11)؛ ويقول: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ ٱلْمُكَذّبِينَ * هَـٰذَا بَيَانٌ لّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لّلْمُتَّقِينَ**﴾ (آل عمران:137-138).

- **سنة الأجل واعتماد الزمن** ضمن الخطط، والأعمار المطلوبة للعمل، والإنتاج وأدائه:

يقول تعالى: ﴿ **وَلِكُلّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ (الأعراف:34).

- سنة التداول الحضاري:

يقول تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ**﴾ (آل عمران:140).

– سنة الاختلاف والتنوع:

يقول تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ *إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود:118-119).

– سنة حصول الوهن الحضاري:

يقول رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» (أخرجه أبو داود)

– سنة الإهلاك والانقراض الحضاري:

يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» (أخرجه البخاري).

– سنة الفتن والابتلاءات:

يقول تعالى: ﴿ **ألم * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُواْ أَن يَقُولُواْ ءامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ** ﴾ (العنكبوت:1-3).

– سنة عقاب السكوت عن الظلم:

يقول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ**

مِنْهُ» (أخرجه الترمذي).

– سنة إهلاك الظالمين:

يقول تعالى: ﴿**وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاء أَمْرُ رَبّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلاْخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ**﴾ (هود:101–103)؛ ويقول: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلاْرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ (إبراهيم:13–14).

– سنة عاقبة الطغيان وهلاك الطغاة:

يقول تعالى: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَٰءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءامَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ ٱلَّذِى ءامَنَتْ بِهِ بَنواْ إِسْرَٰءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءالئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ** ﴾ (يونس:90–92)؛ ويقول: ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ ٱلاْرْضَ** ﴾ (القصص:81).

– سنة إحباط المكر وأخذ الماكرين:

يقول تعالى: ﴿ **... وَلاَ يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيّىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ آلاْوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر:43).

– سنة التحدي بالعواقب والمآلات:

يقول تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَسيرُواْ فِى ٱلاْرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلاْرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيّنَاتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ (الروم:9).

إلى غير ذلك من الكثير من سنن الكون والحياة، التي لا نهاية لاكتشافها إلا بنهاية العالم.

لذلك نرى أن أي كشف جديد لقانون أو سنة في مختلف مناحي الحياة يحقق قفزة نوعية في رحلة العلوم والمعارف والترقي الحضاري، ويحقق للإنسان ألواناً وقدرات جديدة من المدافعة والمغالبة، التي يتولد عنها اختراع وإنجاز جديد.

إن العالم المتقدم اليوم عندما يتعرض لأي نكسة أو إصابة لم يعد مستعداً للتسليم بها والقفز من فوقها وإنما يحاول – وقد تأخذ المحاولة منه سنوات– الكشف عن مواطن الخلل في التعامل مع السنة أو القانون الحاكم للشيء الذي وقع عنده أو به الخلل، وتحديد السبب وعلاجه، وأخذ العبرة في عمله للإتقان والتنبه لكيلا يقع الخطأ مستقبلاً.

فالمنهج السنني يرقى بالإنسان، ويزيد خبراته ومعارفه وكسبه وإبداعه، ويحمي رحلة الإنسان من الخلل والخطأ والانحراف؛ فإذا ما وقع ذلك نتيجة غفلة أو تقصير، وذلك من أقدار الله وسننه أيضاً أن الذي يقصر يصاب، فلابد من اكتشاف الأسباب؛ لأن هذا الاكتشاف سبيل السداد؛ وفي هذا الكشف استجابة لأمر الله وعبادة له وليس خروجاً عن طاعته والإيمان بمطلق إرادته، ذلك أن الله هو الذي أراد لنا أن نريد ونختار، وطلب إلينا الكشف والمدافعة.

إن الإقبال على كتاب الله، الذي يشكل مصدر المعرفة لهذه السنن، ويضعنا على الجادة، ومعاودة تلاوته وتدبر

آياته والنظر والتأمل في هذا الخطاب الخالد، الذي «لا يَخْلَق على كَثْرة الرَدْ» هو كفيل بالدفع لكشف أسرار الكون ومغاليقه أمام بصر الإنسان، وفتح بصيرته، وتمكينه من مفاتيح الكون والحياة والإنسان.

فالقرآن منح العقل الإنساني مفاتيح الحياة والكون والإنسان؛ هذا البناء الكبير والفضاء الواسع المملوء بالأسرار والرموز لا يمكن للإنسان فهمه وإدراك سيرورته والقوانين، التي تسيره، أو الأقدار التي تسيره، إلا بتلقي علم الأسماء من جهة الوحي، يقول تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ ءادَمَ ٱلاسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَدِقِينَ** ﴾ (البقرة:31)، فهذا العلم هو مفتاح الحياة.

لقد طرحت معرفة الوحي خارطة السنن (الأقدار)، التي تحكم الحياة والأحياء، وهي أشبه في اطرادها وصرامتها ودقتها بالمعادلات الرياضية والقوانين الفيزيائية، بل لعلنا نقول: إن القوانين الفيزيائية وقوانين المادة هي سننها المكتشفة، وإن محاولات الكشف عن سنن الأنفس، أو السنن الاجتماعية، في محاولة لتحقيق قفزات نوعية سريعة، تبدو عصيَّة عن الإحاطة بشكل عام؛ لأنها خفية وبطيئة الإيقاع وبعيدة النتائج وإنها تتحدى بالعواقب والمآلات البعيدة، التي قد تتجاوز عمر الإنسان، وليس بالنتائج القريبة كالسنن الكونية (سنن الآفاق).. ولئن كان الحاضر مؤهلاً للإجابة والكشف عن (السنن الكونية) وكشف قوانين الأشياء فإن التاريخ العميق وملاحظة سيرورته وعوامل السقوط والنهوض، التي قد تأخذ عقوداً طويلة هو مصدر كشف سنن الأنفس والاجتماع البشري ومعرفتها.

هذه المفاتيح، وهذه الأسماء المتلقاة من الوحي، هي البوصلة الأساس للمسيرة، التي بدأت مع رحلة الإنسان، رحلته حتى ينشئ الله النشأة الآخرة.

فالمشي في ضوء ومنهاج السنن هو السير على هدىً وهداية؛ والعدول عنها أو تجاهلها هو العمى والعمَه، يقول تعـــالى: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلالْبَبِ** ﴾ (الرعد:19)؛ ﴿**أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ** (لا يبصر أمامه ولا يحسن الاعتبار والتقدير، ولا يبصر أبعد من أرنبة أنفه، يتعثر بكل خطوة) **أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (الملك:22).. ونكاد نقول: إن أي شيء موجود في هذه الحياة لا يكون وجـــوده إلا بسننٍ جارية وقانون سار، علِمَه من علِمَه وجهِلَه من جهله، فالله يقول ﴿ **أَعْطَىٰ كُلَّ شَىء خَلْقَهُ** ﴾، هذا عدا السنن الخارقة (المعجزات)، التي قد تؤكد من بعض الوجوه اطراد السنن، وأن الذي خلقها هو وحده القادر على خرقها، أما عمل البشر فلا يخرج عن مغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر أحب إلى الله.

وفي تقديري، لو أدركنا سنة المدافعة فقط بشكل جيد لحققنا الكثير من الكسب لأمتنا، والتثبيت لحقنا، والهزيمة لأعدائنا، ويكفينا هنا من تاريخنا نافذة بسيطة، وهي ما قام به نعيم بن مسعود، رضي الله عنه، في غزوة الخندق، عندما ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً، حيث بلغت القلوب الحناجر، فاستطاع بذكائه وحنكته وتدبيره أن يوقع بين الأحزاب جميعاً، وكانت حركته بارقة النصر، حيث أحسن التقاط الفرصة، وقد قال له الرسول ﷺ عندما جاءه وقال: قد أسلمتُ، ولم يعلم أحد بإسلامي، فمرني بما شئت، قال له: « **إنما أنت رجل واحد فَخَذِّل عنّا ما استطعت، فإن الحرب**

خدْعَة..»[1] فكان ما كان من النصر بواحدٍ أحسن التصرف.

فقه السنن

إبصار الماضي واستشراف المستقبل

من نعم الله العظيمة، التي امتنّ سبحانه علينا بها هداية الوحي، الذي يشكل دليل الحياة ويحدد مقاصدها؛ ومنحنا العقل محل خطاب الوحي؛ العقل المؤهّل للنظر والملاحظة والتفكير والمقارنة والمقاربة والمقايسة والاستقراء والاستنتاج؛ كما منحنا الذاكرة، مخزن المعلومات ومستودع الذكريات، وأودع فينا القدرة على استرجاع الماضي وقت الطلب؛ كما منحنا الذكاء، وأمكننا من القدرة على تحليل الماضي وقراءته واستخلاص عبرته للإفادة منها في تصويب الحاضر وحسن النظر والتقدير لأبعاد المستقبل؛ ووضع العقل المستضيئ بهداية الوحي في فضاء لا نهاية له، ودعاه إلى النظر والتفكير والتبصر في هذا الفضاء الكبير من عالم الأنفس والآفاق، ابتداءً من الدعوة إلى التفكير بكيف بدأ الخلق وارتقاءً وامتداداً حتى ينشئ الله النشأة الآخرة، فقال تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِىء ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ**﴾ (العنكبوت:20).

فالتوغل في التاريخ، واكتشاف قانون الحركة الاجتماعية، وقراءة دروس التاريخ وعبره، منذ بدء الخليقة وحتى نهايتها، حتى النشأة الآخرة، هو أمرٌ وتكليف من الله سبحانه وتعالى؛ والنظر والتفكير هو عبادة وطاعة لله؛ وميدان ذلك ووعاؤه هو تاريخ الحياة والأحياء واستكناه سنن الله في الأنفس والآفاق، الممتدة إلى يوم القيامة، والنظر في فضاءٍ لا حدود له وجوانب سيرورة الحياة بكل تنوعاتها.

ذلك أن الهدف من السير والنظر واضح، فهو ليس دعوة إلى غيبوبة وانحباس في الماضي وإنما يتمثل ويقصد إلى استصحاب التجارب والمعارف والكشوف والمعلومات لتحقيق الاعتبار؛ والاعتبار يرشد إلى الصوابية في بناء الحاضر، ويمنح القدرة على عبور الحاضر إلى استشراف المستقبل، وامتلاك الرؤية على تصويب الخلل وتجنب الإصابات، واكتشاف أفق جديد للنهوض الحضاري من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

ولعلنا نسارع إلى القول: إن هذه الفريضة من التفكير في سيرورة الحياة وتاريخ الأمم والشعوب وقيام وسقوط الحضارات، وعلى رأسها تجربة النبوة، هو السبيل لاكتشاف قوانين السقوط والنهوض، أو إن شئت فقل: السنن التي تحكم الحياة، أو القواعد والقوانين الاجتماعية والنفسية والمادية التي تحكم الحياة والأحياء؛ فالتاريخ يبقى هو المصدر الأساس لاكتشاف السنن والقوانين في الأنفس، وهو المختبر الحقيقي للفعل البشري والتأكد من فاعلية السنن، والنظر في العواقب والمآلات؛ هو الذي يمكّن من ملاحظة ومتابعة اطراد السنن وعدم تخلّفها، يقول تعالى: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾ (الأحزاب:62).

ولقد جعلت النبوة الخاتمة السير في الأرض والنظر والتفكير والبصيرة والاستدلال هو وسيلة الدعوة والسبيل إلى الإيمان، يقول تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَىٰ ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى**﴾ (يوسف:108)، وامتدت

([1]) قصة نعيم بن مسعود موجودة كاملة في محمد بن عبد الوهاب، مختصر السيرة النبوية، تحقيق عبد العزيز الرومي، مطابع الرياض، ص174.

الرسالة الإسلامية وآمن بها الناس من خلال إبصار سنن الله في الحياة والأحياء، وتميزت معجزتها بالخلود والامتداد والعطاء من خلال عزمات البشر الخاضعة لهذه السنن والنواميس، بعيداً عن التفكير الخرافي والخوارقي والقفز من فوق الأسباب انتظاراً للنتائج، حتى ليمكن القول: إن استشراف المستقبل والإخبار عما سيقع في قابلات الأيام من النبي الخاتم –وهو الصادق المصدوق ﷺ– جاء نوعاً من الإعجاز ولفت النظر لما يكون، واستشرافه من خلال مقدماته، من خلال استقراء التاريخ وقراءة الحاضر والتدريب على كيفية التعاطي مع هذه السنن؛ فالحاضر لا يخرج عن أن يكون مستقبلاً للماضي وماضياً للمستقبل.

فالسبيل لاستشراف المستقبل يتمثل في النظر في المقدمات والسنن الفاعلة، وبذلك يتأهل الناظر لإبصار المستقبل والإعداد له، حتى جعلت قصص الأنبياء ومسيرة النبوة منجماً لا ينضب على الزمن للنظر والاعتبار، يقول تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لاّوْلِى ٱلاْلْبَٰبِ** ﴾ (يوسف:111).

– الانشطار المعرفي:

ولعل من الإشكاليات الخطيرة والمعادلات الصعبة، في حياة مسلمي اليوم والتي ما تزال مستعصية على الحل وتقديم الإجابة المقنعة وتكوين الثقافة المطلوبة ليكون المسلم في مستوى إسلامه وعصره: ما يعانيه عالم المسلمين من الانشطار المعرفي، والخضوع لرد الفعل، بعيداً عن الاتزان وضبط النسب بين مجالي معرفة الوحي ودورها ووظيفتها، وميدان معرفة العقل ودورها ووظيفتها، هذا إضافة إلى الانشطار المتولد عن كل الثنائيات التي تملأ صفحات حياتنا الفكرية والثقافية.

ذلك أن من الأهمية بمكان، لعملية الارتقاء والنهوض، إدراك العلاقة التلازمية بين الوحي والعقل، والوصول إلى حل المعادلة الصعبة، وإبصار أسباب إشكالية التخلف والتراجع الحضاري؛ وأن مصدر معرفة الوحي هو الله، خالق كل شيء، العالم بكل شيء: ﴿ **أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ** ﴾ (الملك:14)، وأن محلها الإنسان، لاستنقاذه وهدايته، وتقديم الإجابة الشافية عن جميع الاستفهامات الكبرى، التي ما تزال تستعصي على مدركات الحواس أو معرفة العقل؛ وأن وسائل معرفة العقل إضافة إلى الوحي هي الحواس وما يقع ضمن نطاقها، وأن محلها أشياء الإنسان ووسائله وأدواته وآليات كسبه؛ وأن مصدري المعرفة مختلفان، وأن محلي المعرفة مختلفان، وأن العلاقة بين معرفة الوحي ومعرفة العقل قائمة على التكامل والتشارك وليس التضاد والتقابل.

لذلك فوضْع الإنسان أمام الخيار الصعب، الذي يؤدي إلى نوع من الانشطار الثقافي والمعرفي، يؤدي إلى الضلال ويحول دون أي تقدم وارتقاء وكشف وإبداع.

إن معرفة الوحي، عند من يزعمون أنهم يقفون من وراء العقل، لا تخرج عن كونها نوعاً من الغيبيات أو الغيبوبات الذهنية وأحلام اليقظة وإحدى وسائل تعطيل ملكات الإنسان والدعوة إلى انطفاء الفاعلية والانتهاء إلى الجبر والاستسلام؛ وفي المقابل فإن العقل عند بعض من ينحازون إلى معرفة الوحي وظواهر النصوص هو سبة ومحل تهمة ودليل فسوق وابتداع ومروق وخروج عن قيم الدين؛ لذلك بات الاتهام بالعقلانية والعقلانيين وسيلة لمحاصرة العقل وإبعاد الناس عن رجس التفكير، وكأنّ مجال الدين والتدين مَنْ لا عقل لهم (!)

وفي تقديرنا، ما لم يصوب هذا النسق المعرفي، وتنضبط النسب، وتأخذ كلٌ من المعرفتين أبعادها في حياة الناس

وكسبهم، ويطلق لها العنان للقيام بوظيفتها وأداء رسالتها بالتوازي والتكامل مع المعرفة الأخرى فسوف يستمر الارتهان لفخاخ فكرية موهومة وصور من التدين المغشوش، وحسبنا أن نقول: إن وجود العقل شرط لصحة الإيمان بالوحي، وشرط لصحة تكاليفه «فإذا أخذ ما وهب سقط ما وجب»؛ فالعقل هو محل خطاب الوحي، والعقل هو دليل الوحي؛ وارتكاز الوحي عليه في الاستدلال لتحقيق الإيمان؛ فالعقل دليل وسبيل الإيمان، ويمكن القول: إن الوحي، من بعض الوجوه، إحدى معارف العقل، فلولا العقلُ ما عُرف الوحي.

لذلك فإن إقحام الوحي في مجال العقل وعمله في إبداع الخطط والبرامج، خاصة وأن نصوصه تتناهى والحياة ممتدة لا تتناهى، يفقد الوحي وظيفته ويخرجه عن مهمته، ويقلل من شأنه، ويدفع الإنسان إلى تجاوزه والانسحاب من ساحته والعمل على فصله عن حركة الحياة؛ كما أن إقحام العقل في ميدان الوحي والطلب إليه الإجابة عما لا يطيق ولا يقع تحت حواسه واستنتاجه وطاقته، ومحاولة تأليهه وجعله مصدر القيم ومحل تنزيلها في الوقت نفسه يفقد العقل مهمته، ويبدد قدرته، ويبعثر رقعة التفكير، وينتهي إلى تشكيل الإنسان القلق العاجز عن الإجابة عن الأسئلة الكبرى، التي ميدانها الوحي، فيخسر بذلك العقل والدين معاً.

– العقل بين التأليه والإسقاط:

لذلك فتحرير مصدر المعرفة، وتحديد ميدانها، وانطلاق كل من العقل والوحي للاضطلاع بدوره في بناء الإنسان، الذي يبني الحياة ويقيم الحضارة والعمران هو المعادلة المطلوبة للإنجاز الحضاري والترقي الإنساني؛ ذلك أن اعتماد معرفة الوحي للإجابة عن كل شيء، وما يترتب على ذلك من الجنوح إلى المذهب العرفاني الباطني غير المنضبط بضوابط الشريعة والوحي باسم التدين، أدى إلى التوهم بضرورة استمرار الوحي وانتقاله من شخص إلى شخص، وما يتطلب ذلك من ادعاء العصمة للبشر، والوقوع في علل تدين الأمم السابقة، والسقوط في نوع من الغنوصية.

كما أن تأليه العقل ليقوم مقام الوحي، والادعاء أن الإيمان بالوحي كان يشكل مرحلة الطفولة البشرية، وأن العقل أصبح اليوم قادراً على الكشف والمعرفة الكلية، وتكليفه ما لا يقع ضمن طاقاته هو نوع من اختزال الكون والوجود والإنسان وتجريده من شعوره وأشواقه وروحه وتطلعاته؛ ليصبح إنساناً بليداً لا شعور له ولا عاطفة ولا أشواق ولا روح، وتحويله إلى آلة، وصيرورته إلى نوع من الوجودية البوهيمية.

فمن تأليه العقل وعدم الإيمان بغيره، عند بعض الفلاسفة، الذين ضلوا وأضلوا ولم يتمكنوا أو لم يحسنوا غير التشكيك والضياع، إلى إسقاط العقل بالكلية عند الكثير من المذاهب الوجودية، واعتباره الصورة المزيفة للإنسان؛ لأن العقل يشكل وسائل ضغط على الإنسان، يطلب منه التكيف مع واقعٍ ويدفعه إلى مسالك استجابة لظروف وتقاليد وعقائد خارجة عن غرائز الإنسان وشهواته، لذلك فالعقل يحمل لصاحبه المتاعب، والإنسان يريد أن يفعل ما يحلو له، وخاصة الهروب من الأسئلة الكبرى التي تلح عليه دائماً: كيف بدأت الحياة؟ وكيف ستنتهي؟ وهل الموت يعتبر الانطفاء النهائي؟ وأثر ذلك على حياته وسلوكه وعلاقاته وسعيه وعقله؟!

لذلك يقول بعض الفلاسفة: إننا مهما اشتغلنا وانشغلنا في النهار في ميدان العمل والضجيج وأصوات الآلات وصخب الحياة فإننا عندما نأوي إلى الفراش ليلاً ترتسم أمامنا الأسئلة الكبيرة، التي لا نجد لها جواباً مقنعاً: كيف بدأ العالم؟ وكيف سينتهي؟ وهل الموت يعني الانطفاء النهائي؟ ولا علاج لنا إلا الهروب إلى المسكرات والمخدرات أو استمرار

القلق والضياع؟!

ولا شك عندي أن الوحي ملّك العقلَ أدوات النظر ومعايير التقدير والتقويم ووسائل تحديد الهدف والمقصد حمايةً له من التيه والضياع، ولطاقاته من الهدر والضلال، ولفته إلى مجموعة من القوانين والسنن التي تحكم الحياة والأحياء، وطلب إليه النظر فيها، والتعامل معها، والقدرة على تسخيرها، واعتبر التسخير لها هو السبيل الأجدى للقيام بأعباء الاستخلاف وإقامة العمران، وقدم له نماذج من المقارنة والمقاربة والقصص والتحولات الاجتماعية وأسباب السقوط والنهوض ليكون على بينة من أمره، ويأخذ حذره، ويتحقق بعبرة التاريخ، فالعاقل هو من يعتبر بغيره، والأحمق هو الذي يصير عبرة لغيره.

ولعلنا نقول هنا: إن بؤرة الرؤية المستقبلية ونقطة الانطلاق الأساس في النهوض وإبصار المستقبل من خلال مقدماته، أو التمكن من تشكيل المستقبل والمداخلة في بنائه، إنما تتحقق من خلال اعتماد المنهج السنني، ومحاولة الكشف عنه وملاحظة اطراده في الحياة، ومن ثم تأتي مرحلة التسخير والقدرة على المداخلة في المقدمات من خلال القانون ذاته.

وقد يكون من العجب العجاب الاعتقاد والإيمان أن الله لم يخلق الحياة عبثاً، وإنما خلقها وفق نظام محكم دقيق منضبط، والإيمان أن المعجزة هي عمل خارق جار على غير السنن والأسباب المطردة التي ألفها الناس، لفتاً لنظرهم وارتقاءً بهم إلى الإيمان بقوة عليا قادرة على خرق هذه السنن والأسباب، التي يخضعون لها ويخضع لها الكون؛ لأن خالق الأسباب التي يسير عليها الكون والحياة هو وحده القادر على خرقها، ومع ذلك لا يحاولون كشف هذا النظام الدقيق.

واكتشاف هذه السنن الجارية المطردة حتى يتمكنوا من فهم سيرورة الحياة وإدراك النتائج من المقدمات، وامتلاك القدرة على التسخير، سواء في ذلك المعاندة ومحاولات الارتطام بسنن الحياة أو الانتظام والانسجام مع هذه السنن والقوانين، في سعيهم واجتماعهم وأنشطتهم جميعاً، أو الارتقاء بعد الإحاطة بهذه السنن والقوانين إلى محاولة المداخلة في مقدماتها لتحقيق قدرٍ أكبر من التسخير، واستشراف المستقبل، والتخطيط لحسن بنائه أو ما اصطلح ابن القيم، رحمه الله تعالى، على تسميته في «مدارج السالكين» بـ:«مغالبة قدر بقدر»، الأمر الذي يمنح الإنسان سعياً مخططاً ومدروساً لتحقيق مردود مستقبلي أكبر.

فمغالبة الأقدار ليست الخروج والتمرد وإنكار القدر وعدم الإيمان به، بل على العكس من ذلك فهي نوع من أرقى أنواع الإيمان، حيث امتلاك القدرة القصوى على التسخير بالمغالبة: «الفرار من قدر الله إلى قدر الله»، لذلك يقول ابن القيم، رحمه الله، قولته الذهبية: «ليس المسلم هو الذي يستسلم للقدر، وإنما المسلم الحق هو الذي يغالب القدر بقدرٍ أحب إلى الله».

هذه المغالبة، وهذا الإدراك المترافق مع الإيمان باطراد السنن هو الذي يمنحنا القدرة على استشراف المستقبل، والمداخلة في مقدماته، في الحاضر، والتخطيط لما نريده عليه.

ولا يمكن إبصار المستقبل أو رؤيته أو استشرافه إلاّ من خلال كشف المنهج السنني لحركة الحياة والأحياء.

وهذه السنن، أو هذه القوانين، أو الأسباب، التي تحكم الحياة والأحياء هي سنن إلهية، تمثل إرادة الله سبحانه وتعالى؛ هي أقدار الله وأوامره وإرادته في تسيير الكون، وأن عدم الإيمان بها وإدراكها وكشفها ومن ثم القدرة على

تسخيرها هو اختلال في الإيمان واستسلام وجبرية وعطالة وانطفاء فاعلية وانحسار رؤية، ليس لاستشراف المستقبل والتخطيط له وإنما لبناء الحاضر أيضاً، يقول تعالى: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ (الأحزاب:38)، (قدراً مقدوراً) هذه السنن المطردة هي القدر المقدور؛ هي أقدار الله تعالى –كما أسلفنا– التي خلقها لتسير عليها الحياة، والتي تتطلب كشفاً وفهماً ومن ثم قدرة على المغالبة والتسخير.

– استشراف الماضي:

لذلك، فإن من أهم مصادر معرفة هذه السنن وإدراك اطرادها إنما هو استشراف الماضي، رؤية الماضي، والتوغل في التاريخ وتحليل أحداثه، والوصول إلى القوانين التي حكمته وحركته، أو على الأقل انتظمت حركته، يقول تعالى: ﴿ **قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (الأنعام:11)، ﴿**هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران:138).

ونحب أن نؤكد، مرة بعد مرة، أن هذه السنن إلهية، تعمل بإرادة الله وبما أودع فيها من قدرة، وأن الخروج عليها يتطلب معجزة، حيث المعجزة –من بعض الوجوه– دليل اطرادها، وأن الخروج عليها أو تعطيلها لا يكون إلا من خالقها سبحانه وتعالى، وأن التاريخ هو مصدر المعرفة والاهتداء إلى هذه السنن والقوانين.

إن التاريخ، الذي يُطلق عليه: «أبو العلوم الاجتماعية» هو الماضي، وإن استشرافه والتعرف على قوانين حركته هو الذي يحقق لنا العبرة، ويؤهلنا للعبور إلى الحاضر والمرور إلى المستقبل: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى ٱلأَلْبَٰبِ** ﴾ (يوسف:111)؛ فالعبرة والعبور والاعتبار إنما هو نوع من المقايسة والمقارنة والبصيرة والقدرة على رؤية المستقبل، من خلال ما يمنح الماضي من معرفة هذه السنن ويؤكد من اطرادها.

لذلك فقد لا نستغرب أن النبوة، رغم الوحي، طُلب إليها –لأنها منوطة بعزمات البشر وهداية البشر– الاعتبار بقصص السابقين من الأنبياء مع أقوامهم، وكيف أن بعض المقدمات الشاذة انتهت إلى العواقب الخطيرة، يقول تعالى: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ** ﴾ (يوسف:3)، ويقـول تعالى: ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ**﴾ (النساء:164)، ﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاء ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾ (هود:120)، ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى ٱلأَلْبَٰبِ** ﴾.

حتى لنكاد نقول: إن المساحة التعبيرية لقصص الأنبياء مع أقوامهم فاقت بكثير المساحة التعبيرية لقضايا بناء العقيدة وبيان الأحكام الشرعية، بل لعل بناء العقيدة وبيان الأحكام الشرعية إنما جاء أيضاً من خلال القصص.

– القراءة المنقوصة:

وقد تكون الإشكالية اليوم في القراءة القاصرة والمنقوصة لآيات القرآن الكريم، وسيطرة بعدٍ واحد على ذهنية القارئ، هو الاقتصار على بذل الجهد في استنباط الحكم التشريعي، وهو بذلك يحاصر النص، ويحاصر نفسه، ويضيق واسعاً، وينتقص من الفضاء الكبير، الذي يتيحه النص حتى يمتد إلى المستقبل، العالَم غير المنظور، من مثل قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مّنَ ٱللَّهِ فَأَتَٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يأُوْلِى ٱلأَبْصَٰرِ**﴾ (الحشر:2)، فكثير من المجتهدين لم يبصروا من الآية ﴿**فَٱعْتَبِرُواْ**

يأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، إلا أنها دليل على شرعية القياس التشريعي، وهذا طيب ومطلوب، لكن الآية إضافة إلى ذلك نزلت في تأسيس وتأصيل قانون اجتماعي وسنة ماضية إلى يوم القيامة، وهي أن عمل المقدمات نفسها يفضي إلى النتائج نفسها.

فالمعروف أن الآية نزلت في يهود بني النضير وما فعلوا وما انتهوا إليه من العواقب الوخيمة، ومن ثم عقّب تعالى على ذلك بقوله: ﴿ **فَٱعْتَبِرُواْ يأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ** ﴾، فإذا فعل المؤمنون فعلهم أصابهم ما لحق بهم؛ فالاعتبار هو –في أبسط معانيه– عبور الإنسان من إحدى ضفتي النهر (الحاضر) إلى الضفة الأخرى (المستقبل) وتعدية الرؤية، والوصول إلى نتيجة مفادها أن الذي يفعل المقدمات يقع بالنتائج نفسها.

وبالإمكان القول: إن اكتشاف قوانين المادة، من مثل قانون الجاذبية وغيره، هو الذي مكّن العلماء من مغالبته والخروج عليه وليس إلغاؤه، من مثل إرسال مركبات الفضاء واختراع الطيران؛ كما أن اكتشاف قوانين العضوية ووظائف الأعضاء ومغالبتها هو الذي أدى إلى بناء علوم الطب والصيدلة والهندسة الوراثية؛ وهكذا يمكن تفسير التقدم العلمي والإنجاز العلمي والوصول إلى القناعة الراسخة أن ما تحقق إنما جاء نتيجة الكشف عن قوانين الأشياء.

صحيح، كما أسلفنا، أن السنن والقوانين، التي تحكم المادة (سنن الآفاق) واقعة تحت الحس والمشاهدة ومحكومة إلى حدٍ بعيد بالنتائج القريبة، التي تترتب فوراً على المقدمات، التي قد تحصل ضمن عمر الإنسان، ومن هنا جاء الإيمان بها والإقبال عليها والتقدم صوبها؛ لأنها على أهميتها ودقتها ملموسة واضحة، يمكن إدراكها بسهولة ومن ثم استخدامها وإدراك اطرادها ونقلها وعولمتها؛ أما السنن والأقدار الاجتماعية، التي تحكم الحياة والأحياء (سنن الأنفس)، فالعبرة فيها بالعواقب البعيدة وليس بالنتائج القريبة، بل قد تكون النتائج القريبة التي تحصل تنسلك في إطار المقدمات؛ ذلك أن العواقب والمآلات بطيئة وبعيدة ومديدة، قد تقتضي جيلاً أو أجيالاً تَقْضي قبل أن تراها، لذلك تبقى عصية على الإدراك على غير صاحب البصيرة.

وقد يكون من الأمور اللافتة أن القرآن الكريم، مصدر المعرفة والثقافة والتشريع والتربية ... إلخ، يتحدث عن المقدمات وما يترتب عليها من العواقب والمآلات، ويتحدى بها وكأنها معادلات رياضية صارمة ويقينية الحدوث: ﴿ **إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾ (محمد:7)، ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ** ﴾ (آل عمران:160)، ﴿ **إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ** ﴾ (الإسراء:25)، ﴿... **ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (النساء:59)، ﴿ **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ** ﴾ (الشورى:43).

بل لعل القرآن، أو الوحي بشكل عام، الذي يتحدى بالعواقب، اعتبر الفقه الحقيقي في الدين لا بد أن يقود إلى معرفة التأويل والمآلات، وقد وصف الله الكفار في أكثر من موقف خاسر النتائج والعواقب بأنهم ﴿ **قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**﴾ (الحشر:13).

وكان من دعاء الرسول ﷺ لابن عباس، رضي الله عنهما: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**» (أخرجه أحمد).. فالفقه الحقيقي هو معرفة العواقب والمآلات وحسن تقديرها.

وما أدري إلى أي مدى يمكن أن أقول: إن مساحة سنن الأنفس الرئيسة، على مستوى الفرد والمجتمع، غالباً ما تكون متأتية من معرفة الوحي، الذي لفت النظر إليها، ونص على اطرادها، وطلب إلى الإنسان تسخيرها؛ ذلك لأن

محلها الإنسان نفسه، وفعلها في نطاق الإنسان والمجتمع، بينما السنن الكونية، سنن الآفاق المادية، قوانين المادة وأشياء الإنسان متأتية من معرفة العقل(!) ومحلها أشياء الإنسان.

وعلى الرغم من التخلف، الذي يحيط بنا بسببٍ من عدم اكتشاف سنن الأنفس أو آيات الأنفس عن سنن الآفاق أو آيات الآفاق، فلقد بلغت اليوم شأواً بعيداً، عند أهل الحضارة الغالبة؛ فمنهج الاستقراء والاستنتاج واستطلاعات الرأي العام وتحولاته والاستبيانات وبناء المستقبل أو تشكيل المستقبل، في ضوئها، وقياس المستقبل على الحاضر يكاد لا يخطئ.

ولئن كانت قراءة الأنواء والظواهر المناخية وتحركات الأرض أصبحت تنبئ بدقة عن نزول الأمطار وهبوب الرياح وحدوث الزلازل والكوارث البيئية، ليأخذ الإنسان حذره في الإعداد لها والتعامل معها، فإن الدراسات التي تقوم على آيات الأنفس، أو سنن الأنفس، على الرغم من بطئها وصعوبة قياسها وارتباطها بالعواقب، إلا أنها أصبحت أشبه بالرؤية الهندسية، ولا نقول الرؤية الفلسفية، لبناء مستقبل العالم.

– من صور التدين المغشوش:

وتبقى إشكالية ما تزال عصية عن الوضوح، لكونها ملتبسة بمفهومات لم تحرر بعد وبشكل كاف، فيما نرى، وهي أن هذه السنن هي أقدار الله –كما أسلفنا–: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ (الأحزاب:38)، وقوانينه لتنظيم الكون، وأن اعتمادها هو إيمان بقدر الله، بل لعل ذلك أعلى أنواع الإيمان إيجابية، وأن التوكل يعني اعتمادها، خاصة أنها ليست من وضع الإنسان وخلقه، وإنما هي إرادة الله ونظامه وتكليفه؛ فاعتمادها واكتشاف الفجوات والخلل في عدم اطرادها لإصلاح المقدمات لا يمكن أن تُشتمّ منه رائحة الشرك، كما يحلو لبعض المتواكلين وأصحاب الفهم المتخلف، وإنما هو دليل على الإيمان والتوحيد والخضوع لأقدار الله وأنظمته في بناء الكون وتقدير سيرورته، واعتمادها في تحقيق مهمة الاستخلاف الإنساني.

وعليه، فإن العدول عن قراءة واكتشاف السنن وتسخيرها، كمقدمات وأسباب، وانتظار الخوارق والمعجزات (النتائج) هو صور من التدين المغشوش والتفكير المعوج.

– بين الغيب والمستقبل:

وقضية أخرى تكاد تكون ملتبسة في بعض الأذهان أيضاً، وهي دلالة مصطلح «الغيب»، الذي اختص الله بعلمه، والخلط بين الغيب والمستقبل والماضي الغائب عن ساحة النظر؛ ذلك أن المستقبل المطروح هنا هو جزء من «عالم الشهادة»، المقدَّر من المقدمات، المدرَك من السنن الجارية، الذي سوف ينكشف للإنسان شيئاً فشيئاً ﴿**سَنُرِيهِمْ ءايَٰتِنَا فِى ٱلآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ** ﴾ (فصلت:53)؛ و«عالم الغيب» هو عالم ما بعد الموت، الذي يستعصي على الحواس؛ إضافة إلى أن مصطلح «الغيب» قد يُطرح ويُراد به الماضي، وقد يُطرح ويُراد به الغائب عن ساحة المشاهدة، وقد يُطرح ويُراد به المستقبل، وقد يُطرح ويُراد به العالم الآخر... فالتدبر لآيات القرآن والتأمل في سيرة الرسول ﷺ التي جسدت هذه الآيات في حياة الناس، والسيرة بيان عملي لما أنزل الله، هو السبيل إلى تحديد المصطلح ودلالته، بحسب السياق وبيان المحظور من المباح.

وقد نستغرب أو لا نستغرب أن رؤية المسلم المستقبلية، المتأتية من معرفة الوحي، لم تقتصر على «عالم الشهادة»

وإنما تمتد حتى العالم الآخر، واعتبار «عالم الشهادة» وطبيعة تشكيله هو المقدمة لتلك النتيجة والعاقبة؛ حتى إننا لنرى في «عالم الشهادة» الكثير من المقاربات المحسوسة لمشاهد القيامة وما يحتوي عليه العالم الآخر، لذلك فالرؤية بالنسبة للمسلم لا تقتصر على الحاضر وإنما تمتد في عمق التاريخ، منذ النشأة الأولى، كما تمتد في عمق المستقبل وعالم ما بعد الموت وبعد أن ينشئ الله النشأة الآخرة.

ولعلنا نقول أيضاً: إن المسلم، بما أتاحت له معرفة الوحي من الرؤية، قادر على تشكيل مستقبله وامتداد فعله حتى بعد الموت، وذلك بالولد الصالح، نبت المستقبل؛ والصدقة الجارية، استمرار الامتداد والفعل والأثر بعد الموت؛ والعلم المستدام الدائم العطاء، فالرسول ﷺ يقول: «**إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ: إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**» (أخرجه مسلم)، أليس هذا نوع مميز من تشكيل المستقبل، والتحكم به، حتى في عالم ما بعد الموت؟

– نصيب الإنسان من أسماء الله الحسنى:

وقضية أخرى، قد يكون من المفيد طرحها للتأمل، أو فتح ملفها واستدعاء الاهتمام بها، خاصة وأن إخبار الله سبحانه وتعالى برؤية الآيات في الأنفس والآفاق مستمر لبني البشر حتى تقوم الساعة، وهي: ما هو نصيب الإنسان من أسماء الله وصفاته، من العلم والحلم والشكر والصبر والود والرحمة والستر والعفو وعلم الغيب والشهادة .... إلخ؟ وإلى أي مدى يبلغ نصيب الإنسان من التدرج والارتقاء في العلوم والمعارف والصفات والخصائص؟

ولقد لفت نظري، في هذا المقام، ملمح انتهيت إليه بعد تدبر قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (لقمان:34)، كيف أن السياق تغير من محل علم إلى محل علوم أخرى، فعلم الساعة عنده تعالى حصراً، أما بقية الأمور، من نزول الغيث وعلم ما في الأرحام....إلخ، فله سياق لغوي آخر، يحمل دلالات أخرى، وقد جاء علم الإنسان البسيط النسبي اليوم وما وصل إليه من علم الأنواء والأمطار والرياح ونوع الجنين ليأخذ حيزاً من هذا العلم المطلق، وأن ما بقي من أسرارٍ هي في علم الله ينكشف بعضها مع الزمن؛ فهل يعتبر التفكير والكسب في ذلك عدواناً على علم الله وعدم الاعتراف بصفات الكمال له سبحانه، أم أن من الاعتراف بالعلم المطلق للخالق سبحانه محاولة كسب العلم النسبي للإنسان المخلوق؟

لذلك قد يكون المطلوب اليوم محاولة الاقتحام لساحة تكاد تكون محظورة، والرؤية لقضية ما تزال مهمشة في العقل المسلم، بل تكاد تكون من المحظورات، وبناء بصيرة من خلال قراءة الماضي ومقدمات الحاضر وصولاً إلى تشكيل تصور لعالم غائب عن مطاولة الحواس، يتجاوز البصر إلى البصيرة، والحكم إلى الحكمة، ويرتقي من المقدمة إلى النتيجة، ويلاحظ اطراد السنن وفاعليتها، فيعدِّي الرؤية من الحاضر المشاهد إلى المستقبل الغائب عن ساحة الحواس، ويبصر في المقدمات النتائج، ومن الأحداث الكبرى المآلات والعواقب، حيث لا بد أن نعترف بأن الغوص فيما يسمى علم «المستقبليات» ما يزال يُستقبل بغير راحة إيمانية كافية، وما يزال يتداخل مع بعض الالتباسات والتأثيمات، وعلى أحسن الأحوال محاولة الكثير منا الهروب من مثل هذه الدراسات وإيثار السلامة وإغلاق باب النظر والاجتهاد، على الرغم مما يحمل ذلك من رؤية حسيرة ويخبئ من مفاجآت مقبلة لم نُعِدّ لها؛ لأننا نعدل عن إبصارها ودراسة احتمالاتها والقفز من

فوق مقدماتها باسم الدين وسلامة العقيدة!

إن أحاديث الفتن كلها، تقريباً، فيما وراء أنها إخبار من الصادق المصدوق ﷺ هي رؤية مستقبلية، جاءت على سبيل التحذير والتخويف وضرورة الإعداد لها، ومحاولة التخفيف من آثارها السلبية، من أهمية إصلاح المقدمات حتى لا تدركنا النتائج الضارة؛ وما أشراط الساعة والإخبار بأماراتها إلا رؤية مستقبلية تتطلب الإعداد والاستعداد بفعل المقدمات المنجية، من هولها.

أما الفهم المتخلف فذهب بها في اتجاه آخر، فمثلاً قول الرسول ﷺ: « ... **إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلا مِلَّةً وَاحِدَةً**، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي**» (أخرجه الترمذي)، دفع كثيراً من الباحثين إلى عدّ الفرق وإعادة عدها لتصل إلى الرقم المطلوب دون جدوى، بينما المطلوب – فيما نرى– أن يختبر الإنسان سلوكه ومدى انطباقه على ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ليطمئن على سلامة المصير؛ وكذلك عندما سُئل ﷺ عن أشراط الساعة قال للسائل ذاته: «**وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا**» (أخرجه البخاري).

فهل تمنحنا هذه الأحاديث مؤشرات على أهمية امتداد التفكير إلى عالم المستقبل، والتبصر بعالم الغد، من خلال استشراف الماضي والسنن التي حكمته، وقراءة الحاضر والمقدمات التي تحكمه، لرؤية المستقبل وكيفية تشكيله والإعداد له؟

ثمّ، ألا يحق لنا أن نقول: إنه لا فقه ولا حياة منتجة دون استصحاب أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي، الحاضر، المستقبل؛ وإن إسقاط أي بعدٍ من هذه الأبعاد، التي تحكم حياة الإنسان، عن ساحة النظر والتفكير تحت شتى الذرائع، سوف يشكل انهداماً واختلالاً في مسيـــرة الحياة، وانحشاراً في زمرة من وصفهم الله بقوله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ** ﴾ (الحشر:13).

إن تجريم وتأثيم النظر صوب المستقبل والإعداد له، في ضوء استشراف الماضي وقراءة الحاضر، هو نوع من إنكار المنهج السنني وامتداد للتفكير المعوج والتدين المغشوش، يتناقض مع أصل الخلق وهدف الخلق، ويعتبر نقيصة للإنسان، الذي يتجه عضوياً إلى التفكير بمستقبله، حتى لنجد في تكوينه العضوي وجود عينيه في أعلى قامته بحيث يستطيع النظر إلى أبعد ساحة أمامه؛ فليس الاستشراف إلا الارتفاع إلى أعلى والصعود إلى الشرفة العالية ليتمكن من النظر المديد ومعرفة ما في الأفق البعيد.

فالحاضر – كما أسلفنا– هو مستقبل الماضي وماضي المستقبل، وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ **غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِى أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ**﴾ (الروم:2–4)، مؤشر على أهمية النظر إلى مستقبل الأحداث والتحركات الاجتماعية ودلالاتها ومآلاتها.

﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾

الوحي مصدر المعرفة السننية

لعل مما يميز كتاب الله سبحانه وتعالى ما يمنحه من الفضاء الفكري والمعرفي والثقافي والتشريعي؛ ذلك أن التأمل والتدبر والتفكر في آيات الله، في كتابه المقروء وفي كونه المنظور وسننه في الأنفس والآفاق، يبلغ بصاحبه أبعاداً تتزايد وتمتد وتكتشف

كلما ازداد تأمله وتفكره ونظره وعاود تلاوته وتوسعت مداركه وتقدم عمره؛ فأبعاد كلمات الله وآياته وعطاؤه خالدٌ وممتد إلى أن ينشئ الله النشأة الآخرة، فلكل جيلٍ رواؤه، ولكل عقلٍ غذاؤه، يقول تعالى:﴿ **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾ (الكهف:109)، ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ**﴾ (لقمان:27)؛ وهذا ليس لغير كلام الله وكتاب الله، فهو كالبحر الزاخر كلما غُصتَ فيه كلما عدت بالكنوز «**لا يَخْلَق على كَثْرة الرَدْ**»؛ فأي كلام من كلام الناس أو إنتاجهم بعد أن يقرأه الإنسان أو يطلع عليه يبلغ مداه حتى ولو حمل نفسه على معاودة القراءة؛ وقد يشعر بالقراءة الثانية ضيقاً ومحاصرة لعقله وحدّاً من تفكيره.

فالقرآن هو سبيل الهداية ودليل الحياة؛ ومعرفة الوحي هي المنطلق والإطار والمرجع لرحلة الإنسان وموجِّه تفكيره.

ويبقى السؤال الكبير والمستمر هو في: اكتشاف ما أعطاه الله، لمخلوقاته المتنوعة، فلكل خلق من مخلوقاته قانون وسنة تحكمه، فما هو هذا القانون؟ ماذا أعطى الله المخلوق محل الهداية؟

فلقد جعل الله سبحانه وتعالى معرفة الوحي سبيل الهداية ودليل العمل والتعامل مع الحياة، بكل تحولاتها، وفق سنن وقوانين وأقدار مطردة ونظام محكم، يقول تعالى: ﴿ **قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ (طه:50)، فهذه الآية تسع كل إنجازات الإنسان ومكتشفاته لقوانين المادة العضوية والنفسية، وتجعله بصيرة ممتدة لاكتشافات جديدة، وهي وراء رحلة البحث العلمي والتطور المعرفي.

لقد ميَّز الله الإنسان بهذه المعرفة، وجعله على بيِّنة من أمره وفعله، في الشدة والرخاء، والعسر واليسر، كما جعله أمام مسؤوليته عما يفعل بعد أن منحه حرية الاختيار؛ وهذه المسؤولية فرع تلك الحرية ودليلها، قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ** ﴾ (المؤمنون:115)، وقال: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً** ﴾ (الأحزاب:38)، وقال: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر:43).

فالإنسان والكون والحياة –كما أسلفنا– تخضع لسنن ونواميس وقوانين؛ وهذه السنن والقوانين هي مفاتيح الكون ووسائل فهمه وشفرة الحياة وأدوات التعامل معها، وبدونها تتحول الحياة إلى ألغاز مستعصية على عقل الإنسان.

والرسول القدوة ﷺ، المبلِّغ عن ربه ما نزل إليه، تعامل مع معرفة الوحي، التي أكدت حاكمية السنن لواقع الناس وحياتهم، وقدم الأنموذج العملي والتربوي لتسخيرها وحسن التعامل معها، وكان محل الاقتداء والتأسي لمسيرة الحياة، بكل تفاصيلها ومتعرجاتها وما يمكن أن يكون من العسر واليسر، والشدة والرخاء، والهزيمة والنصر، والضعف والقوة، والخطأ والصواب.

لقد كان ﷺ دليلاً هادياً للناس للتعامل مع سنن الله وأقداره في الحياة والأحياء، في كل الأحوال، مؤكداً في كل المناسبات أن هذه السنن الجارية إنما تتحقق من خلال عزمات البشر، بعيداً عن الأوهام والأساطير والخوارق (أو السنن الخارقة)، ذلك أن حسن تسخير هذه السنن ومغالبة قدر بقدر هي قضية الإنسان في الأرض –كما أسلفنا– وأن الإخفاق في تسخيرها أو الغفلة عنها والانسحاب من التعامل معها مؤذن بالوقوع في الشدة والأزمة والتخلف، نتيجة للارتطام بها، المؤدي لضياع الأجر والعمر.

إن همَّ النهوض، والمساهمة في معاودة إخراج الأمة لتحمل الخير والرحمة للإنسانية إنما يتحقق بالعمل العلمي المتخصص القاصد أو الهادف وامتلاك الأدوات الحقيقية، التي تمكننا من اكتشاف هذه السنن وتحديد مواطن الخلل، والعمل على وضع خطة متكاملة لكيفية إصلاحه، وقبل ذلك ترويض أنفسنا وتمرين عقولنا وتربية أجيالنا على شجاعة الاعتراف بالخـــلل، الاعتراف بالفشل والإخفاق، بعيداً عن المكابرة بغير الحق، والاعتراف بالمسؤولية عنه ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾ (آل عمران:165) وعدم الإلقاء بالتبعة على أية جهة، حتى إذا ما أعيتنا الحيلة ألقينا بالتبعة على القدر، وكأنه يستقصدنا دون غيرنا(!)

إن استشعار التحدي، الذي تمثله الأزمة التي نعيشها، والتي تكشف عن مواطن الضعف والإصابة، والتحرك في ضوء ذلك، هو نقطة الانطلاق للبدء في تحليل الأزمة وتفكيكها وإرجاعها إلى أسبابها وعواملها ومكوناتها الأولى، ومن ثم وضع الخطط، التي تأخذ بالاعتبار الأسباب والعوامل والآثار، التي شكلت الأزمة، الخلل، وتصميم طرق وبرامج كيفية التعامل معها، في ضوء السنن الحاكمة للإنسان والكون والحياة.

– الوقاية من الأزمات:

إن فقه هذه السنن لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات، التي يمكن أن تلحق بنا، بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما فقه السنن يشكل لنا دليلاً للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل وقوعها؛ كما أن السير في الأرض واكتشاف السنن لا يدل على أسباب السقوط والنهوض فقط وإنما يمنح العبرة والدروس والفقه بكيفية التعامل مع الأزمات وكيفية تجاوزها.

ونعتقد أن استرداد فاعلية الأمة المسلمة ومعاودة إخراجها مرهون، إلى حد بعيد، باستدعاء معرفة الوحي، مصدر معرفة السنن –كما أسلفنا– واستصحابها كدليل عمل وبوصلة هداية لكيفية التعامل مع مسيرة الحياة، وإبصار سننها، وإيقاظ الوعي، واستنفار العقل، وتوفير التخصصات المطلوبة لبناء العقل الناضج، ليقوم بدوره ووظيفته في الاجتهاد وتنزيل معرفة الوحي على واقع الناس ونوازلهم من خلال المنهج السنني، في ضوء الاستطاعات المتوفرة والظروف المحيطة، والخلوص من ذهنية التخلف والعجز والانسحاب من ساحة الفعل والفاعلية والإيمان بالخوارق والأساطير وحصول المعجزات ومحاولة الإلقاء بالتبعة على (الآخر) أو على القدر عندما تعيينا الحيل وتعوزنا الأدلة.

هذه الحالة المرضية، انتظار الإنقاذ من أمر خارج عن فعلنا، أو الإلقاء بالتبعة على (الآخر)، التي نعاني منها تحولت إلى توارث اجتماعي بين الأجيال، إلى ثقافة مجتمع، إلى وباءٍ مُعْدٍ على الرغم من وضوح المسؤولية في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ**﴾؛ ذلك أنها لم تعد تقتصر على الجماعات والأحزاب والطوائف والمؤسسات وإنما تجاوزت ذلك إلى الأفراد، الذين يجهدون أنفسهم في إلقاء تبعة فشلهم فيما يضطلعون به من مهام ويناط بهم من أعمال على الآخرين(!) ولو أنهم بذلوا هذا الجهد في دراسة أدائهم ومعرفة نقائصهم وتقصيرهم واستدراك ما يعوزهم لاستطاعوا الارتقاء ولو بشكل بسيط، أو على الأقل لاستووا على الجادة الصحيحة، التي تأذن لهم بالتصويب.

لكنه الاستكبار بغير الحق، والتمترس وراء ألقاب وعناوين، دون مؤهل حقيقي؛ تلك الألقاب الخادعة، التي تتحول مهمتها إلى توبيخ حمَلتها وصبغ حياتهم بنوعٍ من البهتان وتحملهم على ارتكاب المحظور والمساهمة في خلق الأزمة والمشكلة بدل حلها؛ لأنهم أصبحوا هم المشكلة.

– صناعة مناخ الفتن:

وليس أقل من ذلك شأناً، بل لعلنا نقول: الأمر هنا قد يكون أشد خطورة وأنكى عاقبة، وهو أن لا نكتفي بالعجز عن إدارة الأزمة وعدم القدرة على تحليلها واكتشاف مواطن الخلل واستشرافها قبل وقوعها، للحيلولة دونها أو التخفيف من آثارها، وإنما يستهوينا مناخ الفتن والأزمات فلا نستطيع العيش بدونه، فنصرف جهدنا كله إلى استدعاء أزمات تاريخية ماضية وإيقاظ فتن نائمة، لم يبق فيها استزادة لمستزيد، «لعن الله من أيقظها»، لا للخلوص إلى العبرة واكتشاف السنن الاجتماعية والاقتصادية أو السياسية التي حكمتها، والاعتبار بها حتى لا نلدغ من جحر مرتين، وإنما نستردها لنجعلها فخاخاً تستنزف جهد الأمة وعقلها ومالها في المعارك الخطأ.

ذلك أن الكثير من الناس باتوا لا يستطيعون الحياة إلا في مناخ الأزمات مثلهم مثل الاحتكاريين في أزمان الحروب والمجاعات، الذين يتلاعبون بأقوات الناس توهماً لمصلحتهم؛ فهم بذلك يصنعون الأزمة ويمتدون بها ويعجزون عن تجاوزها ليركبوا الموجة ويَصْعَدون عليها بحجة الغيرة على تاريخ الأمة وحماية لحاضرها.

والذي نود تأكيده أننا في الحالة الأولى، التي نلقي فيها بتبعة الأزمات على (الآخر) نحكم على أنفسنا على الأقل بأننا دون سوية التعامل مع الظروف والنوازل وامتلاك أهلية قيادة الأزمة وحسن إدارتها ومعالجة أسبابها، وفي الحالة الثانية (الإلقاء بالتبعة على القدر) أننا دون سوية فهم معرفة الوحي، التي تمنح فقه السنن وتقدم نماذج للتدريب والاقتداء، وكيفية التعامل مع الأزمات؛ وليس ذلك فقط وإنما إغلاق منافذ التفكير كلها، التي يمكن أن تقود إلى إدارة الأزمة، واكتشاف مواطن الخلل، واستبانة أسباب القصور ومواطن التقصير، والمساهمة بخبال الأمة، وإلغاء رد فعلها العفوي في الاستجابة للتحدي والتفكير في سبيل الخروج.

إن غياب المنهج السنني عن العقل المسلم اليوم – والمؤسف أن العقل المسلم أضاع البوصلة «معرفة الوحي» ووقع في التيه– نمَّى صور التدين المغشوش، وأدى إما إلى المروق من الدين أو الانسحاب من الدنيا.

– من الفهوم المعوجة:

وهنا شيء أشبه بالطرفة يمكن أن نذكره بالمناسبة، وهو أنموذج من الفهم المخزن لقيم معرفة الوحي، في الكتاب والسنة، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ ءايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ** ﴾ (فصلت:53)، وقوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاء كُلَّ شَىْء حَىّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنبياء:30)، يعني عند أصحاب هذا الفهم السقيم أن أمر كشف السنن والآيات والدلائل موجه للكافرين ومنوط بهم، وأن الله سيريهم آياته وسننه في الأنفس والآفاق ليقودهم ذلك إلى الإيمان به وتنتهي المهمة، وكأن الرؤية رهينة بهم، أما نحن فلسنا بحاجة إلى هذه الرؤية وهذا الاكتشاف وفهم مسيرة الكون على مستوى الأنفس والآفاق، لأننا مؤمنون (!) فلا نحن نسعى لهذه الرؤية لنتملكها ولا نحن ندرك أن السعي إليها من مقتضيات الإيمان ولوازمه.

وهكذا تستمر فينا الفهوم المغشوشة، المعوجة، وتنعكس ذهنية التخلف على فهم الوحي، وتتحول معرفة الوحي من وسيلة هداية وإنقاذ إلى تكريس التخلف والمساهمة بالاستنقاع الحضاري، وذلك يتم تحت عناوين الإيمان والتدين، التي تنمو بسرعة في عالم التخلف، لا تزيد الأمة إلا خبالاً وتراجعاً وعطالة.

وليس أقل خطورة أيضاً من ذلك الاعتقاد أن الله خلق المسلمين للعبادة، بمفهومها الضيق والحسير جداً، بعيداً عن

حكمها وحكمتها ودورها في بناء الفرد ورسالتها في المجتمع، ومنح الآخرين إمكانية النظر والتفكير وبلوغ العلوم والصناعات واكتشاف السنن التي تمكنهم من إتقان تدابير الحياة ليكونوا في خدمة عباد الله المؤمنين به (!؟) يعالجون قضاياهم، ويديرون أزماتهم، ويقومون نيابة عنهم على عمارة الأرض، ليتفرغوا لعبادة الله (!)

– فقه التعاطي مع الأزمات:

وقد تكون الإشكالية أو الأزمة الأم كامنة في الذهنية، أو في الثقافة، في كيفية التعاطي مع الأزمة؛ ذلك أن لكل أزمةٍ أسبابها، أو سننها التي أوجدتها، وأن تحليل الأزمة وتفكيك عناصرها والتعرف إلى أسبابها، وامتلاك الأدوات التي تعالج هذه الأسباب وتكون قادرة على ترميم الآثار أو التخفيف ما أمكن من الآثار السلبية، واكتشاف عوامل الحل الكامنة في الأزمة نفسها تتطلب دراسات وتخصصات معرفية متنوعة، وخبرات متراكمة عن سيرورة الحياة، والقدرة على تدبر معرفة الوحي ومسيرة التاريخ، التي تمنح ملكة التدبير وإدارة الأزمة واكتشاف ما تكنه من فرص ونوافذ تبصِّر بالحل، ذلك أن كل أزمة تحمل في داخلها بذور الحل، وأن اليسر قرين العسر: ﴿ **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾ (النساء:19) (أي في المكروه).

ولا شك أن مواطن الخير ﴿**وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً** ﴾ التي تلازم الأزمة والتي تشكل نقاط الانطلاق والخروج من نفق الأزمة، تتطلب فقه النازلة أو فقه الأزمة، الفقه بمعناه الشامل العام، الذي يعني الاستيعاب والإحاطة بالأسباب والنتائج ووضع أوعية لحركة الأمة، أثناء الأزمة، لا تقتصر على التخفيف من آثار الأزمة وإنما تحوِّل الأزمة إلى حل، والنقمة إلى نعمة، تُبْصر مواطن الخير، وتكتشف بواطن الأزمة وما تتضمن من ملامح التصويب، ورؤية الحل.

فالأزمة دائماً تحمل في داخلها سبل الخروج ﴿ **فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً** ﴾ (الشرح:5)، فاليسر من لوازم العسر، ﴿**فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً**﴾، فهذا الجَعْل من الله، الملازم للمكاره والشدائد والأزمات، هو الذي يشكل أمل الخروج وعدة الصمود وآلية الإقدام على النظر والتفكير واكتشاف الخلل؛ على الهداية إلى الحل، الذي يشكل المخرج.

ولعلنا نقول هنا: إن هذا الإيمان بأن ﴿ **مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً** ﴾ والذي يغذيه الدعاء، بحيث يصل بالإنسان إلى الأمل والرجاء وتحقيق الصمود والقدرة على المواجهة المستندة إلى بارئ الكون، صاحب القدرة المطلقة على الهداية إلى الحل، هو الذي يشكل الرافعة الحقيقية للصمود والاحتفاظ بالقدرة على النظر ورؤية المخارج، ويؤهل للنظر الهادئ، ويحول دون السقوط والانكسار، ويؤدي إلى التجاوز بل الارتقاء والمناعة المستقبلية.

وإذا كانت أبسط قواعد المنطق تقضي بأن «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» فكيف يمكن لنا أن نتعامل مع الأزمة، التي قد تكون معقدة تعقيداً شديداً، بالتطاول والادعاء بعيداً عن فهمها وإدراكها وبيان توجهاتها وتصور الآثار المترتبة عليها والأسباب التي أوجدتها، والجرأة بل الجراءة على القول فيها بغير علم، والله تعالى يقول: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ (الإسراء:36)؟

إن الثقافات المغشوشة في عالم التخلف، التي تدفع إلى التطاول والقول والنظر في قضايا قد تكون من دقائق الأمور، التي لم نمتلك الأدوات التي تمكننا من فهمها، حتى ولو كان ذلك بنية صادقة وإخلاص في الوجهة، لا تزيد الأمور إلا تأزيماً، والأزمة إلاّ شدة؛ وإن كنتُ أعتقد أن من متطلبات النية الصادقة ولوازمها، قبل العزم على العمل،

الإحاطة بما يُقدم عليه الإنسان «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِه، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» (أخرجه البخاري)؛ وذلك يعني رؤية الأبعاد قبل حركة الأقدام وتحديد الأهداف؛ وليس أمر الإخلاص، الذي هو الصدق كله، والصفاء كله، ومتطلباته بأقل من ذلك شأناً؛ فالصدق والإخلاص يقتضي فحص العمل؛ وفحص العمل واختباره يتطلب مهارات وأدوات واختصاصات على صلة مباشرة بطبيعة المشكلة والأزمة؛ فلكل مشكلة متخصصوها وأهل حلها وعقدها، إن صح التعبير.

لذلك فالتطاول والإقدام وإعطاء أنفسنا الحق في القول في أكثر القضايا تعقيداً – حتى لا نُتهم بالجهل– خاصة ممن يضعون أنفسهم في محل القدوة، دون امتلاك التخصص والأدوات والخبرة والمهارة ينمِّي التخلف ويزيد الخبال، ويؤدي إلى جعل الإشكالية أو الأزمة أكثر تعقيداً وأعقد تركيباً.

ولو تأدبنا بأدب معرفة الوحي، بقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ ، وأن لكل أمر كوني أو نفسي أو اجتماعي سنة تحكمه وقانوناً ينتظمه ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ**﴾ (آل عمران:137)، ولو تأدبنا بأدب العقل والمنطق بأن «الحكم على الشيء فرع عن تصوره» لتوقفنا طويلاً قبل الخوض مع الخائضين، وأدركنا نقصنا وتقصيرنا، وانصرفنا لنستدرك ما فاتنا.

وقد يكون من بعض وجوه الإشكالية أننا نقفز من فوقها لنتعامل مع النتائج دون إبصار المقدمات والأسباب، مع أن مجال وميدان فعلنا وفاعليتنا هي المقدمات؛ فالنتائج تحكمنا والمقدمات نحكمها.

– العجز عن تنزيل السنن على الواقع:

ولعل من الأمور اللافتة حقاً أننا بدأنا من زمن ليس بالقريب بالحديث عن أهمية السنن الإلهية في الأنفس والآفاق كقوانين اجتماعية وكونية مطردة وصارمة لا تحابي أحداً، ولا أدل على عدم المحاباة من قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ** ﴾ (محمد:4)، وعن دورها في الإصلاح والتعامل مع الأزمات واكتشاف مواطن الخلل وامتلاك القدرة على تحليله وتحديد أسبابه وسبل معالجته، ودورها في النهوض والبناء الحضاري، وأن التعرف إليها والقدرة على تسخيرها من أخص خصائص تكليف الإنسان للقيام بأعباء الاستخلاف وبناء العمران، ذلك أن فقهها هو السبيل للوصول إلى مرحلة متقدمة للتعامل مع الحياة والفرار من قدر الله إلى قدر الله، أو مغالبة قدر بقدر، شأن المسلم الحق؛ ولعل قولة ابن القيم، رحمه الله، في هذا المجال لم تدع استزادة لمستزيد: «ليس المسلم الذي يستسلم لقدر الله، وإنما المسلم الحق من يغالب قدر الله بقدر الله» (مدارج السالكين).

لكن كم كنا نتمنى على أنفسنا وعلى الآخرين القيام بمحاولات لتقديم نماذج وأمثلة والتقدم صوب قضايا الحياة ومشكلاتها ونوازلها وتحليلها وتفكيك مكوناتها، وقراءتها من خلال المنهج السنني، وإبداع الحلول السننية للتعامل معها، أو باستشراف المستقبل وقراءة المقدمات وأخذ الحيطة والحذر ومعالجة الأسباب بشكل استباقي، للحيلولة دون الأزمة، أو التخفيف من آثارها حال حدوثها، واكتشاف فجوات الأمل والنجاة والتقاط فرص التجاوز التي تصاحبها؛ واجتهادنا في ذلك قد يخطئ مرة ومرات لكنه المنهج الذي لا مندوحة عنه للتعامل مع الحياة والأحياء بمنهج سليم، إضافة إلى أهمية: كيف يصبح ذلك ثقافة وتمريناً للأجيال القادمة؟

لكننا مع الأسف الشديد استغنينا بالحديث عن السنن وأهميتها ودورها وفاعليتها عن محاولة تنزيلها على حياة

الناس؛ عجزنا حتى عن تقديم أمثلة وقراءات قاصدة ونماذج تحتذى وتدريب الأجيال على النظر والتحليل والاستنتاج والاعتبار والاستقراء للظواهر واكتشاف سننها.

وكم ستكون النتائج محزنة–كما أشرنا سابقاً– عندما نقوم بمقارنة أو مقاربة مع العالم المتقدم، ذلك أن العالم المتقدم استطاع، من خلال الاندهاش والملاحظة والتجربة والخطأ والمحاولة الدائبة، أن يكتشف الكثير من السنن والقوانين الاجتماعية وقوانين المادة حتى أصبح ذلك ثقافة عامة له، يتعامل معها الناس كلهم تقريباً في مواقعهم المتعددة وعلى المستويات المتعددة، كل بحسب مستوى ثقافته وطبيعة عمله، حتى باتت أدوات القياس والتقويم ووسائل اكتشاف الخطأ جزءاً لا يتجزأ من حياتهم وحضارتهم؛ فأي خطأ أو خلل خاضع للدراسة والمراجعة وتحديد مواطن التقصير وأسباب القصور، ومن ثم استصحاب ذلك للحيلولة دون تكرار الإصابة ووقوع الأزمة، مهما كانت مساحتها؛ وكل خطأ يؤدي إلى كشف جديد لا يقل عن الكشوف الكونية الحديثة التي لا تتوقف.

– من عطاءات المنهج السنني:

إن اكتشاف المنهج السنني، الذي يحكم الأنفس والآفاق، والتزامه في التنمية والتطوير والارتقاء والتقدم العلمي والتقني كان وراء الكثير من الإنجازات الكبيرة في مسيرة الحضارة، كما كان له الأثر البالغ على حياة الإنسانية ومعالجة أزماتها وقضاياها..

فالكشف عن سنن الأنفس أنتج علوم النفس والاجتماع والإنسان؛

والكشف عن سنن الكون أنتج علوم الفيزياء والفلك... إلخ؛

والكشف عن سنن وقوانين المعادن والعناصر العضوية أنتج علم الكيمياء، وساهم باختراع الأدوية؛

والكشف عن سنن مكونات جسم الإنسان ووظائفه (البيولوجيا والفسيولوجيا) أنتج علم الطب وعالج أزمات وأمراض الإنسان، وهكذا تستمر سائر الإنجازات العلمية ومعالجة الأزمات الإنسانية، وتأتي ثمرة لاكتشاف واتباع المنهج السنني واكتشاف قوانين الخلق: ﴿ **أَعْطَىٰ كُلَّ شَيء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** ﴾ في شتى المجالات؛ وكل يوم يأتي بجديد إلى أن ينشئ الله النشأة الآخرة.

بينما نحن أصحاب معرفة الوحي، التي اختصرت لنا الطريق ووفرت علينا الجهد والوقت، حيث بينت لنا أن الكون تحكمه سنن لا تتخلف ولا تحابي، وقدمت لنا نماذج تُحتذى على مستوى الفكر والفعل، من خلال قيم الكتاب والسنة والسيرة التطبيقية، وطلبت إلينا التوجه صوب منجم القيم، تاريخ النبوة والتاريخ البشري، للوصول إلى الاكتشاف لهذه السنن، واليقين من اطرادها وفاعليتها، والتعلم منها كيف نغالب قدراً بقدر ونفر من قدر إلى قدر، بدل أن تشل قوانا وتدعنا عجزة عن النظر والفكر والفعل والتعامل، بتنا نعاني من العجز والتخلف بل والخزي الذي يورثه الإيمان ببعض الكتاب ﴿ **فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدّ ٱلْعَذَابِ** ﴾ (البقرة:85).

وبالإمكان القول: إن حالة التخلف والعجز والتراجع الحضاري، التي نعيشها صرفتنا إلى الحديث عن أهمية المناهج والمصطلحات والنظريات والقيام بالمقاربات والمقارنات والاستنجاد بالتراث للإجابة عن بعض الأسئلة وتشكيل الغطاء الثقافي دون القدرة على الممارسة والإبداع والتوليد، ذلك أن الممارسة والإبداع تتطلب تخصصات وخبرات متراكمة

ومهارات وامتلاك الأهلية للتعرف على التجارب العالمية في ذات الموضوع، وتأتي بعد ذلك مرحلة استيعابها وامتلاك معايير الإفادة منها، ومن ثم التكيف معها وصولاً إلى مرحلة الشراكة والإبداع في مجالها.

فالمتخلِّف بطبيعة تخلفه عاجز عن الإفادة من (الآخر) بشكل عام، فكيف يفيد منه في أمور خاصة ودقيقة؟ لذلك فقد يكتفي ببعض المقاربات والمقارنات، التي قد لا تسمن ولا تغني من جوع، هذا إن لم تؤد إلى مزيد من التراجع والبقاء عند حدود الشواطئ وترديد العناوين والشعارات بفيض من الحماس والتي تساهم في تكريس التراجع الحضاري.

– من المضامين والإنجازات إلى العناوين والشعارات:

ولعلنا نقول: إنه في مراحل التوهج الحضاري من تاريخنا الثقافي والسياسي والإداري كان مصبّ الاهتمام هو المضامين والإنجازات والإبداع وليس العناوين والشعارات والمصطلحات؛ فكم من الأزمات السياسية والإدارية والاقتصادية، التي مررنا بها في مسيرتنا الحضارية والتاريخية، وكيفيات إدارتها والتعامل معها؟! لكن إشكالية التخلف تورث عجزاً عن الإفادة من التراث ومن معطيات العصر، فتتحول الجهود من إنضاج المضامين إلى الولع بالعناوين والشعارات الكبيرة، فإذا ما حاولنا تجاوز هذه العناوين الكبيرة إلى المضامين شعرنا بالكارثة الثقافية، وأصبنا بخيباتٍ تورثنا تخلفاً على تخلف، وتجعلنا نعيش وَهْم العافية ومرارة العجز عن الإنتاج والتوليد الذاتي.

وتستمر رحلة الغش والنفاق والدجل الثقافي، التي لمَّا نكتشف حقائقها وندرك مآلاتها وعواقبها بعـــد: ﴿ **بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ (يونس:39).

نعاود القول: إن مسيرة الحياة وما يعترضها خاضعة لسنن وقوانين اجتماعية وكونية ﴿ **فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ** ﴾، وإن هذه السنن ثابتة ومطردة لا تحابي أحداً، وهي سنن جارية في الحياة حتى على النبوات المسددة بالوحي، المؤيدة به، إلا ما اختصت به النبوة من السنن الخارقة، المعجزات، التي يجريها الله على أيدي الأنبياء لتكون دليل نبوتهم ومعقد صدقها، أما فيما وراء ذلك فالنبوة نفسها خاضعة للسنن الجارية، التي تحكم الحياة والأحياء.

بل لعلنا نقول: إن النبوة، أو معرفة الوحي، هي التي أبانت عن هذه السنن، ودللت عليها، واستشهدت لها من التاريخ، وطلبت من المؤمنين متابعة السير في الأرض والرحلة في الماضي، وجعلت إدراكها وحسن تسخيرها هو جدلية الحياة وامتلاك القدرة على بناء الاستخلاف والعمران وفق منهج الله، الذي يعني شرع السنن والأقدار والانضباط بها.

فسنة التدافع، التي تعتبر من السنن الأساس لحركة الحياة، التي شرعها الله والتي كشفت عنها معرفة الوحي، التي تحكم مسيرة الحياة وتميز بين القدرات بحيث يمكن حسن تسخيرها والتعامل معها ومغالبة قدر بقدر، كانت ولا تزال وراء النجاح والفشل في الحياة والحيلولة دون الأزمات ورؤية التعامل معها حال وقوعها واكتشاف مواطن الخلل والأسباب حتى لا نعاود السقوط، فلا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، هي خيرٌ من كل وجه، وفي مقدمة الخيرية هي معاودة بناء الإنسان ومعالجة الغفلة، التي يمكن أن يمر بها، وإيقاظ وعيه، واختبار مواطن الإصابة، واستدراكها وتجاوزها.

ولعلنا نقول: إن سنة التدافع، إضافة إلى ذلك، تؤدي –كما أسلفنا–إلى حصحصة الحق وحماية أهله والحيلولة دون امتداد جولة الباطل وسطوته، يقول تعالى: ﴿ **كَذٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ (الرعد:17)، فالأزمة والضرب والمدافعة تذهب بالزبد وتبرز الجوهر، تبرز قيادات جديدة وعبقريات جديدة قادرة على الإفادة من التجربة ومبصرة لسبل التجاوز؛ يقول تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ**

بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج:40)، ويقول: **﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلارْضُ﴾** (البقرة:251).

وهكذا رحلة الحياة، وقد يكون ذلك وراء فلسفة من رأى أن جدلية الصراع هي التي تحكم الحياة، وأقام لذلك مذهباً وتنظيرات، متناسياً أن سنة التدافع هي واحدة من السنن الكثيرة التي تنتظم مسيرة الحياة وتحكم علاقاتها، بما في ذلك خضوع مسيرة النبوة لها؛ بل لعل مسيرة النبوة وكيفية تعاملها تعتبر دليل السنن التي تحكم الحياة.. وكل ما قدمت النبوة في هذا المجال: أهمية فهم السنن، وكيفية تسخيرها، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر؛ وأن تلك السنن لا تلغي إرادة الإنسان بل تنميها وتطلقها من عقالها.

والنبوة في مجال السنن والتدليل عليها استشرفت تاريخ الإنسان، منذ النشأة الأولى، واستقرأت أحداثه، وليس ذلك فقط وإنما استشرفت المستقبل واحتمالاته وتقدير نتائجه وعواقبه، من خلال قراءة المقدمات، لبناء الاستعداد والإعداد والتفكير بكيفية الحيلولة دون وقوع الأزمات؛ وما أحاديث الفتن، التي أخبر عنها الرسول ﷺ والتي سوف تتعرض لها مسيرة الحياة والأحياء في حقيقتها إلا رؤى مستقبلية تطرح علينا السؤال الكبير دائماً: ماذا أعددنا لها؟ وكيف نتعامل معها؟ وكيف نبصر سبيل الخروج؟ فهي كقطع الليل المظلم، الذي يغشى الأبصار ويعمي الرؤية لكن لا يلغي البصيرة والوعي بها؛ وأن أول خطوة على طريق التجاوز هي تنمية جوانب الخير الإيجابية ومحاصرة الجوانب السلبية للحيلولة دون امتدادها، وأن نخف ونبادر لإصلاح الواقع ومعالجة الخلل للحيلولة دونها، أو دون آثارها، أو السقوط فيها.

– قراءة أحاديث الفتن في المنهج السنني:

فقول الرسول ﷺ: « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ** (السرعة في المواجهة، ابتداءً من تنمية الجوانب الإيجابية وإصلاح الخلل) **فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» (أخرجه مسلم) خير سبيل للخروج والعلاج.

لكن ذهنية حالة التخلف والتراجع الحضاري لم ترنا من أحاديث الفتن إلا نماذج الإعجاز في مجال الإخبار بالغيب؛ والإخبار بالغيب أحد دلائل النبوة وصدقها بدون ريب والتدريب على رؤية النتائج من خلال حصول المقدمات، لكن ما قيمة الإخبار بها إذا لازمتنا حالة العطالة وافتقاد القدرة على الإعداد لمواجهة الأزمة والمبادرة للحيلولة دون آثارها وإبصار كيفية إدارتها والتعامل معها؟

ولعل المطلوب اليوم، أكثر من أي وقت مضى، والأزمات يأخذ بعضها برقاب بعض، التوجه صوب القراءة القاصدة والإيجابية للأزمة، وتحليل مكوناتها، في ضوء فقه السنن، والعمل على امتلاك القدرة لتوظيفها في استرداد فاعلية الأمة، وتجديد شبابها، واستنبات قيادات ونخب جديدة، والقضاء على الجوانب الرخوة في حياتها، وبيان أثر الترف والفساد والفسوق والمعاصي في هشاشة بناء الأمة ونظامها الأخلاقي ونسيجها الاجتماعي وتحضيرها للكارثة؛ وبكلمة مختصرة: كيف يمكن أن تكون الأزمة فرصة أو لحظة تاريخية تُلتقط للمراجعة على مختلف الأصعدة؟

فلو حاولنا التعرف على ما ترتب على أزمة الإفك، التي تعتبر من أخطر الأزمات في العهد النبوي وأبعدها أثراً في تاريخ النبوة والحياة الإسلامية، وتأملنا ما ترتب عليها من نتائج وأحكام شرعية، وآداب اجتماعية، وقيم أخلاقية، وفرز لمكونات المجتمع، وفضح للمنافقين وبيان دواخلهم وخطورة دورهم، لأدركنا البعد الإيجابي للأزمة، ولوعينا حقاً آفاق قوله

تعالى: ﴿**لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ**﴾ (النور:11)؛ لذلك لا بد لنا أن نقرأ الأزمات جميعاً ودورها في إعادة البناء، بعيداً عن الخوف والاضطراب، تحت عنوان: ﴿ **بَلْ هُوَ خَيْرٌ** ﴾، مستحضرين قولة بعض الصالحين: «لا تخافوا الفتن فإنها حصاد المنافقين».

كما لا بد لنا من العمل على استدعاء فقه السنن (فقه الأزمة)، وفتح هذا الملف المهم في حياتنا المعاصرة إلى ساحة التفكير والنظر، ليكون محلاً للبحث والنظر، ومحوراً للتفكير والتفاكر، وبعثاً للفاعلية، وتجاوزاً لطرح القضايا التقليدية، التي ما نزال نبدي فيها ونعيد؛ ذلك أن مثل هذه الموضوعات المعاصرة والتي تبلورت عند (الآخر) وكان له في تأسيسها وتأصيلها وتحديد مفاهيمها ومصطلحاتها فضل السبق، لم تأخذ بعدها المطلوب في الأدبيات والاهتمامات الإسلامية المعاصرة.

ولا بد من إدراك أهمية الامتداد في الاجتهاد الفكري في المجالات والآفاق المتعددة، ومحاولة استنطاق القيم واستقراء التاريخ الحضاري للأمة المسلمة، والتبصر والاعتبار بكيفية التعامل مع الأزمات، والمقاربة مع التراث، والمقارنة مع ما وصل إليه (الآخر).

إن هذا الملف، وغيره كثير، ما يزال من الثغور الفكرية المفتوحة في العقل المسلم المعاصر بالأقدار المطلوبة والتي تحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير والتأسيس والتأصيل والاستيعاب، الأمر الذي سوف يؤهل من ثم لهضم الكسب العالمي، ضمن معيار معرفة الوحي، وصهره في بوتقة القيم الإسلامية، ذلك أن مجرى الحياة لا يتوقف، وأن مسيرتها كانت وما تزال تحمل الكثير من الأزمات والفتن والشدائد والنوازل والاحتمالات، وتحتاج إلى اجتهادٍ دائب، وفقه نوازل مبصر للآفاق والعواقب والتداعيات والمآلات، وعقلٍ مستجيب لمعرفة الوحي، مؤطر بها، يفكر ويبصر ويعتبر ويبتكر أوعية، ويستشرف آفاق المستقبل، ويعد له عدته، ويقدم حلولاً للتعامل مع الأزمات، وكيفية الحد من آثارها، وتجاوزها بأقل قدر من الخسائر، ومحاولة تحويل النقمة إلى نعمة؛ لأن الأزمة من بعض الوجوه تشكل جرس الإنذار أو صوت النذير والصدمة الضرورية لسبات الأمة لتحقق المراجعة والتوبة الفكرية والعملية، واكتشاف أسباب الخلل ومواطنه، والعودة إلى مراجعة المعاصي، التي أهّلت لحصول الأزمة، والمبادرة لإصلاح الحال، واللجوء إلى الدعاء، الذي يشحذ الفاعلية ويبني الهمَّة ويجلي الحقيقة ويوصل بمصدر القوة.

فالدعاء فعل وفاعلية، وليس سلاح العاجز وتكريساً للعجز، ذلك أن الاستعانة بالله سبحانه وتعالى، معقد الرجاء وسبيل الصمود والثبات على القيم، وعدم الانكسار أمام الأزمة: «**بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» (أخرجه مسلم).

الفهرس

***مدخل**

– سنة كفر النعمة وزوالها:

– سنة نهاية الترف ومصير المترفين:

– سنة الوراثة الحضارية:

– سنة تحقيق النصر والتمكين:

– سنة المدافعة:

– سنة التدرج والارتقاء بالناس

– سنة التغيير الاجتماعي:

– سنة السير في الأرض لتحقيق العبرة واكتشاف القوانين الاجتماعية:

- سنة الأجل واعتماد الزمن

- سنة التداول الحضاري:

– سنة الاختلاف والتنوع:

– سنة حصول الوهن الحضاري:

– سنة الإهلاك والانقراض الحضاري:

– سنة الفتن والابتلاءات:

– سنة عقاب السكوت عن الظلم:

– سنة إهلاك الظالمين:

– سنة عاقبة الطغيان وهلاك الطغاة:

– سنة إحباط المكر وأخذ الماكرين:

– سنة التحدي بالعواقب والمآلات:

*** فقه السنن: إبصار الماضي واستشراف المستقبل**

– الانشطار المعرفي:

– العقل بين التأليه والإسقاط:

– استشراف الماضي:

– القراءة المنقوصة:

– من صور التدين المغشوش:

– بين الغيب والمستقبل:

– نصيب الإنسان من أسماء الله الحسنى:

* ﴿لا تحسبوه شراً لكم﴾: الوحي مصدر المعرفة السننية

– الوقاية من الأزمات:

– صناعة مناخ الفتن:

– من الفهوم المعوجة:

– فقه التعاطي مع الأزمات:

– العجز عن تنزيل السنن على الواقع:

– من عطاءات المنهج السنني:

– من المضامين والإنجازات إلى العناوين والشعارات:

– قراءة أحاديث الفتن في المنهج السنني: